الفصل الخامس :

# أيـــــام الدرعـــــــــية :

عندما طالعوا الدرعية كان الجد علي بن حمد رحمه الله يقدر البقاء فيها عدة أيام، ولم يدر بخلده قط أن ذلك سيمتد لشهور، فقد كانت معظم المنازلات التي شارك فيها سابقاً (الحجاز ونجد) تستغرق بضع ساعات أو بضعة أيام. لما غادروا العيينة منحدرين جنوباً في حنيفة الذي أمسى ضيقاً، لاحظوا كثرة البساتين المنتشرة فيها حدائق من النخل والرمان والخوخ، ومعظمها أراضي مستصلحة حديثاً خلال الخمسين سنة الماضية، كما شاهدوا زراعات على ضفتي الوادي، بها عرائش العنب ونباتات بقولية وبصل، كما توجد بقايا شجيرات الدباء واليقطين والبطيخ، والمنازل أكثرها بسيطة لسكن العاملين أو مظلات، مع قصر منيف يظهر بين آونة وأخرى. كان الجد يمتطي ناقة أصيلة نائفة يعلو رأسها وسنامها بنحو ذراع عن البقية، وكان ذلك يتيح له رؤية أبعد للجوار، وخلفه ركائب حمل العتاد والمئونة، كما تسير بجواره جياده المطهمة مرتاحة من أي أحمال، حتى إذا جاء وقت المنازلة كانت في غاية نشاطها، تستطيع المناورة برشاقة وسرعة، يحف بهم مجموعة من الخدم، الذين يتولون تدبير كافة مستلزمات المعيشة اليومية. قبل المغرب جاءهم من الدرعية الأمير زيد بن عبدالله، بالتوجه نحو مرفق الملقا البعيد عنهم قدر نصف ساعة، وهناك لاحظوا أن الوادي غدا أضيق مما كان عليه، إلا أن أمامهم منطقة أشجار كثيفة وزراعات خضراء تنبئ عن وفرة الماء وخصوبة التربة، ثم وصلوا بستان بديع به قصر مشيد، يقع عند مصب وادي العمارية في حنيفة. وجدوا ترتيبات جيدة للمعيشة، وبعد العشاء أخلد أكثرهم للنوم بعد ضنى معركة ضرماء، وفي اليوم التالي أشار أحد الخثالين على أبناء حمولته، أن يرافقوه في أعلى الوادي غرباً للعمارية حيث أصهاره، ثم بعد قليل جاء خلفهم أحد العاملين ينبه لوجوب العودة، حيث الجميع يعملون في تحصين مكانهم، ويتفقدون الغائبين. شاهدوا الأمراء الكرام يعملون مع البقية بأيديهم ومعاولهم لإقامة دشم ومتاريس لمنع تسلل العدو للقصر، كما أنشئوا فتحات ومزاغير أعلى المبنى ليكمن فيها القناصة والبواردية، ولم يتعرض أحد منهم بالتوبيخ لمن غادروا المكان بدون إذن! بعد أيام من العمل المضني سمعوا قوم يحضون ركائبهم للإسراع في السير نحو الدرعية، ولم يفهموا الأمر إلا حينما توقف بعضهم للاستراحة وشرب الماء، فتبين أنهم فارين من جحافل الروم الذين صعدوا طويق، ووصل الباشا الكريه إلى العيينة ولم يبالي بها،بل استمر في سيره منحدراً نحوهم. كان منزلهم في الملقا يكشف بجلاء الوجهة الجنوبية، أما الجهة الشمالية فقد كان المجرى يعوج قبلها، وتحجب النخيل رؤية القادم من أعلى الوادي، لذا استأذن الجد من الأمير زيد لمصاحبة فرقة

تتجه شمالاً حتى تراقب تلك الجهة، ووافق مع تحذيرهم من أمرين أولهما عدم تسلق النخل، حيث مع الترك قناصة يرصدون ذلك، ويطلقون النار من بنادقهم البعيدة المدى على من يرونه، وثانيهما عدم المبادأة بإطلاق النار حسب ما أعلمهم الإمام. لم يجدوا في تلك المنطقة ما يمكنهم التستر خلفه وكشف الحركة من شمال، واقترح الجد الإسراع في بناء مرقب، لكن أكثرهم رفض لضيق الوقت وعدم توفر الأدوات لذلك، وأشار أحدهم إلى وجود حظيرة تخطوها، ورغم أن بعض حوائطها متهدم إلا أن الشرقي وجزء من الشمالي قائمة، وبالإمكان ترميمها في ساعات وعمل فتحات صغيرة للرؤية. في ضحى اليوم التالي جاءت أفواج من العرب، تحث إبلها للتوجه أسفل الوادي، وقبل الظهر همس أحدهم للجد بالنظر نحو أعلى التل الشرقي، حيث شاهد عشرات من الخيل الرومية يمتطيها عساكر بعضهم يحمل بيارق حمراء وأخرى زرقاء، وبدا أنهم يعاينون طبيعة المكان، ويستطلعون ما حوله من ممرات ومجاري سيول، ثم عند العصر وصلت فرقة كبيرة تسوق بغال وحمير، واتجهوا نحو منبسط من الأرض شرق الوادي يعلوه منحدر وعر يصعد للأعلى، وحاول بعض الفرسان النزول معه فلم يستطيعوا سوى واحد منهم، معه فرس مدربة أخذ يسير بها للخلف على مهل، وتبعه عدد من رفاقه يمشون، فتوجهوا نحو ساسة البغال لمقولة بينهم. ما هي إلا لحظات وباشر الحمارين في إنزال أمتعة وعتاد، وآنذاك أرسل قائد المجموعة (الخُبرة) اثنان ليبلغوا الأمراء بما يجري لديهم، وبينما الجد منشغل في الاستطلاع بناظوره المقرب، سمع لغط من الجهة الأخرى، ثم لاحظ وصول المئات من الرجال المصريين، الذين أعملوا معاولهم وفؤوسهم في تسوية الأرض وإزالة الحجارة الكبيرة وقطع بعض الشجيرات. كان الناظور ضعيف الحدة اشتراه من ضرمى، ربما أنه من سلب إبن المؤذن وقد انخدشت إحدى زجاجتيه عندما كبا الجواد، وهو بثمن بخس مقارنة مع ما عرض عليه في الحج، ويتركب من اسطوانتين معدنيتين إحداهما أعرض من الأخرى، وتنزلق الرفيعة داخل أختها لقصد تحسين الرؤية للمسافة البعيدة، ويوجد على كل طرف عدسة زجاجية إحداهما مقعرة والأخرى محدبة. كان الملقا حيث الأمراء يبعد نحو أربعمائة خطوة عن مرقبهم، الذي عادوا إليه صباحا مندهشين من سرعة تشييد مخيم ضخم، كأنه مدينة صغيرة تحوي كافة مستلزمات المعيشة المريحة، وبعد ساعات تعالى غبار من الشمال، وبلغهم ضجيج وجلبة من اقتراب طلائع جيش الترك، حيث بدا أن الأرض تهتز تحت أقدام الرجال وحوافر الدواب، ثم ظهرت الجموع الزاحفة تهدر كأنها عاصفة، منحدرة في الوادي جنوباً غير آبهة بمن يوجد على ميمنتهم. انقطع ذلك بعد ساعتين وخفتت الأصوات لبعض الوقت، حيث وصلت كتيبة من العساكر العثمانية ذات اللباس المزركش يسيرون في صمت ووقار، تبع ذلك فرقة من المعازف ينقرون الدفوف (طبول) بعصي قصيرة، ومعهم نافخوا الأبواق النحاسية، وتلتهم كتيبة علي خيول مدرعة ويرتدي أفرادها لباس حربي،

انحرفوا يساراً ودخلوا المخيم، وخلفهم جمهرة من الفرسان الأشداء يحيطون برجل على فرس مرتفعة، ويعتمر قلنسوة حمراء يتدلى من خلفها ذؤابة من خيوط سوداء يتخللها خيوط من القصب المذهب، وظن أنه الباشا أو أحد معاونيه، ولا يرتدي العمامة كما رأى محمد علي قبل ثلاث سنوات في بسل، أخذ المنظار أحد الرفاق "شقراوي" وأكد أن ذلك الرجل هو إبراهيم باشا، بخاصة بعد أن أطلق خمسة من الحرس بنادقهم ترحيباً به، حيث تطلق ثلاث مرات فقط للآخرين. حاول الجد التمعن في سحنة الباشا لكن ناظوره المعطوب كان لا ينزلق بين اسطوانتيه، بل تتعلق حركته مما يعيق وضوح الرؤية من بعيد، إلا أنه لاحظ ترجل القائد من على جواده وسيره نحو السرادق والخيام المجاورة له، وبدا أنه يشير لأحد مرافقيه نحو العمال في تمهيد الدرب الصخري الصاعد لأعلى التل. قبل الغسق رحلوا عائدين نحو قصر الملقا الصغير، وتحادثوا مع الأمراء حول تفاصيل مشاهداتهم للترك، وتبين أن بعض أهل العيينة قد تسللوا من الجنوب الغربي، وقبل مغادرة الملقا للدرعية قصوا عليهم أن الباشا قد أمر أحد كبار قادته للتوجه من الجبيلة شرقاً، والبقاء غرب بنبان كرديف لهم حيث يخشى أن يلتف عليه إبن سعود، ويطلق المدافع من أعلى التلال فيحصدهم خامدين. تساءل الجد عما إذا كانت لديهم مدافع حديثة، أو أنها ما سبق أن غنموه من الخوالد وثويني قبل عشرات السنين؟ فردوا عليه أنها نفسها. ثم استفسر أحدهم عن عدد جنود العدو، فقيل له أن من توجهوا لبنبان يزيدون قليلا عن الألف، يرافقهم أكثر من ذلك من الأعراب، أما عدد عساكر الباشا فقد اختلف عليها، فمنهم من يقدرهم بعشرة آلاف، وغيرهم يخمن أنهم قرابة مائة ألف. تحدثوا طويلاً قبل النوم حول ما نمى لعلمهم عن وجود مخابرة للصلح، ولم يؤكد أحد ذلك أو ينفيه، وفي الصباح لاحظ الجد أن المعسكر به عدد أقل مما كان البارحة، كما أن النظام مضطرب مما يؤشر على غياب القيادة العليا، وأشعرهم أحد النخالين أنه سمع ضوضاء عند الفجر وكان القمر في المحاق، ثم شاهد عدد وفير من حملة المشاعل يصعدون التل الشرقي، وخمن الجد أن الباشا قد أرِق في ذلك الوادي القاحل، وخاف على نفسه من البقاء في الأرض المتدنية، فأرسل زميل له للأمراء بذلك ليأخذوا حذرهم، لكن الرجل عاد إليهم بوجوب سرعة مغادرة محلهم، حيث سيرسل الترك جنوداً للسيطرة على المكان. في بكرة اليوم التالي ورد إلى مسامعهم أصوات رماية وقذائف من جهة الجنوب، فأيقنوا أن الثائرة قد قامت لكن ذلك لم يستمر طويلاً، كما تقدم جنود الباشا من عند المخيم والتفوا على بستان النخل، من جهة وادي حنيفة ووادي العمارية حيث يلتقيان.

استأذن الجد ورفاقه من الأمير زيد للتوجه نحو أعلى وادي العمارية، لكن الأمير إبراهيم رأى وجوب استئذان الإمام أولاً، وبعد التداول حول صعوبة الوصول للطريف، ومخاطر أن يلتف الروم من العمارية نحو التلال الغربية للدرعية

ويحاصروها، لذا وافقوا على توجههم إلى هناك. تسللوا على ركائبهم وسط النخيل التي على الشاطئ الشمالي للوادي، ولم يروا أحداً من الغزاة فساروا في باطنه، عند الزوال قرروا الاستراحة لأداء الفريضة والطعام، على ميسرتهم أعلى الضفة أرض مرتفعة منبسطة، جزء منها عليه حائط قصير بها مقبرة، فقرروا الجلوس غربها تجاه القبلة. ثم صاح أحدهم بأن القوم جاءوهم، فقد شم التنباك مع النسيم الشمالي الشرقي، فتسلل أحد العارفين وعاد بنباء قدوم مفرزة تركية من نحو ثلاثين مسلح، يصاحبهم خمسة من البدو أدلاء، تداولوا الرأي حول الانسحاب جنوباً لتفادي المجابهة، لكن الغالبية رأوا مباغتتهم للقضاء عليهم، لكن الوادي يتسع هناك ومن الأفضل التوجه غرباً نحو المضيق. وجدوا راعي قطيع من الماعز الأسود، فأمروه أن ينحدر بهم نحو الوادي، وهناك تفرقوا إلى فصائل من اثنين أو ثلاثة، واختبئوا خلف صخور كبيرة في سكون، عندما حاذاهم البغاة عمدوا إلى الحيلة القديمة، بإطلاق نار أم فتيلة نحو البهم، ثم باشروا توجيه بنادقهم نحو الرجال، الذين لم تفزع معظم خيلهم وتتعثر في الماعز الفارة، حيث درب الترك دوابهم على السكون، فخلال الثلاث سنوات الماضية تعلم العدو سبل تفادي الحيل العربية. لكن ذلك منح المجاهدين لحظات لشن هجوم مكثف نحو الغزاة، الذين اضطربت حالهم ففر بعضهم للأمام في الوادي، وتوجه آخرون شمالاً نحو نخيل قليلة، بينما تراجع ثلاثة منهم للخلف عائدون لقاعدتهم، وسقط البقية قتلى وجرحى. أمر قائد الفرقة وهو أحد رجاجيل الإمام ابن سعود، خمسة من المجاهدين لمطاردة الفارين شرقاً لمنعهم من الوصول لمقرهم، ولكن أنى للبعير الهرم الهزيل أن يدرك الحصان الشاب النشيط! ثم توجه نحو الجرحى وأخذ أربعة منهم أسرى، أما المصابون بشدة فقد أجهز عليهم، وأرسل احد الأتباع لحض أهل العمارية على اقتناص بقية أفراد العدو. هرول البقية عائدون للملقا، وسمعوا في طريقهم صوت رماية شديدة جهة الجنوب، علموا عند وصولهم أن الباشا حاول مهاجمة التحصينات الشمالية للدرعية، واضطر للانسحاب بعد رد عنيف من قوات الدفاع المتمركزة هناك. توجه الجد نحو مجلس الأمراء فلقي ارتباك وظلامية، فقد وردت تعليمات بسرعة مغادرة الملقا، حيث سيعمد العدو للتراجع نحو أعلى الوادي، وتصفية كافة مراكز المقاومة قبل العودة لمهاجمة العاصمة. لذا تقرر سرعة التوجه نحو أسوار العاصمة الشمالية. الطريق لا يستغرق سوى أقل من ساعتين، لكنهم أمضوا فيه زهاء ثلاث ساعات، فقد كان المسير في الظلام بين الأشجار وعلى أرض محفورة صعباً، كما تأخر عنهم عمال المخيم والحمالين، وفي طريقهم شاهدوا على الجانب الآخر جموع غفيرة من العدو، متجهين شمالاً في فوضى الهزيمة. تبين لاحقاً أن الباشا ومستشاريه الفرنساوية قد استهانوا بقوة التحصينات وعزيمة المدافعين، الذين وفقهم الله لكسر ذلك الهجوم الغاشم، لذا قرروا الانسحاب وإعادة ترتيب الوضع لاحقاً. مضى الهزيع الأول من الليل لذا لم يكن من الحكمة الاقتراب من الدرعية في غياب القمر، أشعلوا النار

لمضادة البرد المتوسط في العراء، وانتظروا قدوم تجهيزات الإقامة والمبيت. أخلد كثير من الرفاق للنوم ساعة "صفرة" الشمس، أما الجد فبقي في تسبيح وذكر، حتى جاءه أحدهم أن الأمير جالس للقهوة والمحادثة، فذهب نحوه ووجده مع قائد فرقة العمارية أمس، يفحصون فرد حديث بدون فتيل، طوله نحو شبرين وله قبضة منثنية للأسفل من خشب الجوز أو البندق، فقال إن الرفاق قد غنموا ذلك من عند جثة أحد أبناء المؤذن في ضرما، حيث يوجد أعلى القبضة "ركاب" يسحبه المقاتل بإبهامه للخلف، ثم يفلته فيعيده الزنبرك بسرعة نحو زناد أمامي، تثور منه شرارة قوية تشعل البارود المحشو في مؤخرة أنبوبة السبطانة، فيندفع اللهب ومعه كرة معدنية صغيرة وضعت مع الحشوة، وينطلق كل ذلك من الفوهة الأمامية، وقال لهم أن البعض جربوا إطلاقه ببارود البنادق وقطع الرصاص، لكنه غير فعال إلا على مسافة تقل عن عشرين خطوة، وهو سلاح شخصي مثل الخنجر لكنه أفضل من فرد الفتيلة. عندما قص عليهم أبي ذلك في سبعينات القرن الرابع عشر، كان البعض يتمنطقون فرود "كولت" ذات الست طلقات، والتي لا تحتاج حشو، بل يدخل في برميلها من أسفله مشط، توجد به ظروف الطلقات المكونة من ثلاثة أجزاء، لا يزيد طول الواحدة عن نصف الخنصر، وأوسطها وعاء به خلطة البارود، وأعلاها المقذوف المدبب من سبيكة الرصاص ومعادن أخرى، وأسفلها مفلطح يوجد به المشعل، الذي تضربه إبرة الإطلاق فيؤدي لالتهاب النار في المظروف، متسبباً في خروج المقذوف بسرعة عالية نحو الهدف، لكن ذلك لم يكن معروفاً زمن حرب الدرعية. تساءل الأمير عن وادي العمارية، أجابه أحد أهلها من الجالسين أنه يبداء من السفوح الشرقية لطويق، الواقعة شمال الدرعية وجنوب الحيسية، حيث تصب سيول هادرة أثناء شدة المطر، وتتجمع في عدة شعاب تلتقي في واديين، الأيمن والأيسر (مطيرفة ومزيرعة) أكبرهما الأيمن الذي تقوم على ضفته العمارية، أما الأيسر فيقع جنوباً عنه، ويلي ذلك تلال وروابي غير مرتفعة لكنها وعرة، توجد بعدها عدة شعاب تتجه غرباً، منها شعيب حريقة الذي يصب في وادي حنيفة شمال الدرعية. أما واديي العمارية فيلتقيان في الجزء الشرقي من البلدة، فيكونان وادي العمارية الرئيسي الذي يزيد اتساعه في بعض الأماكن عن حنيفة، وعند شدة هطول المطر تندفع السيول هادرة فيهما، حتى يجتمعا في الملقى فيتجه الفيضان جنوباً نحو مكاننا هذا، وهو لا يحدث إلا مرة كل عشرين أو ثلاثين سنة. استفسر الأمير عن بداية إنشاء البلدة، فقيل له أن هناك خلاف حول ذلك، فيقول بعضهم أن عمار الدئلي (كنانة) جاء مع جيش خالد لمحاربة مسيلمة، ثم راقت له طبائع الأرض والهواء فاستقر هناك ولم يعد للمدينة، وآخرون قالوا أن أول من سكنها عمار الحنفي، ويدعي غيرهم أنه من تميم، لكن سكانها (آنذاك) معظمهم من لام قحطان. سارع أحد الجالسين بالقول إنهم أهل جدتك "موضي الكثيرية" وبدا عدم استحسان الأمير لقوله، فقال هل تستطيع قوات الترك التسلل من العمارية، ثم مباغتة

الدرعية بهجوم من الجنوب الغربي؟ فردوا عليه أن التلال جنوب العمارية وعرة، لا يسلكها إلا المشاة أو الهجانة، أما سحب المدافع والراجمات والزهاب فهو عويص.

ساروا نحو أسفل الوادي في سكون، ولاحظ الجد أن ضفتيه متباعدتين بأكثر من مائتي خطوة، وهو يتسع ويضيق وتعلوه تلال غير شاهقة الارتفاع، أما بطن الوادي الذي تجري فيه المياه، حتى لو كان المطر رشاشاً، فلا يزيد عرضه عن خمس عشرة خطوة. عندما استدار الوادي يميناً عاين الجد علي منظراً مهولاً، حيث توجد أبراج حجرية مرتفعة، يصل بينها سور متين يعترض الوادي، ثم يصعد التلال اليمنى واليسرى متجهاً نحو الجنوب، محيطاً بالمكان إحاطة السوار بالمعصم. كان ذلك على خلاف ما رآه في نجد والحجاز طيلة عمره، وقد فهم لاحقاً أن ذلك قد طوره الإمام سعود الكبير، بعد محاولة الغزو من نجران، وقام على بنائه مئات العمال المختصين، من الهند وفارس ومسقط واليمن وأنفقت عليه أموال طائلة، وهو ليس من الطين والحجر والخشب كغيره، بل من أحجار جيرية (ليمونية) متماسكة مع بعضها في مصفوفات دقيقة تزيده متانة. على يسارهم شاهد شعيب يصب في الوادي، يسمى "العلب" بكسر العين ومعناه الثمرة المعقوفة، مثل قرن الفلفل أو الموز ويشبه كوع يد الإنسان أو المرفق، وتواجههم بوابة جانبية ضخمة، وعلى الميسرة واحدة أخرى أصغر منها، كما بنيت قناة تسمح بجريان مياه الوادي عبرها أسفل الحائط، وهي تستند على قواعد حجرية مربعة ضخمة، يصل بينها ألواح حجرية سميكة يبلغ طول الواحد نحو قامتين وعرضها ثلاثة أذرع، بنيت بصناعة ماهرة لتحمل الحائط، وتوجد خمس من تلك القنوات متباعدة عن بعضها. خمن الجد أن هناك وسائل لردع التسلل منها إلى داخل البلدة، كما لاحظ وجود مكامن بشكل شبه دائري (هلالي) مفتوحة للخلف، ويبلغ ارتفاع الواحد منها قامة مبنية من حجارة صغيرة مونتها من اللبن، تكفي الواحدة منها لإيواء أكثر من عشرة رجال، مع مستلزماتهم من طعام وذخيرة، يتربصون فيها للقادمين من الشمال، ويطلقون مقذوفات سلاحهم من عدة فتحات على مناسيب مختلفة، ويغادرونها ليلاً للمبيت في داخل السور، ثم يعودون لها قبل ضوء الصباح. فكرة فعالة لاحظ وجودها وهي المتاريس الصخرية والمعدنية المنتشرة بين ضفتي الوادي، بقصد منع البهائم ساحبة الراجمات والمدافع من السير في خط مستقيم نحو الحائط، حيث تُلزمها تلك العوائق على الاستدارة يمنة ويسرة مما يجعلها عرضة لنيران القناصة في جنبها. وشاهد جموع من المتطوعين للجهاد يعملون على شاطئ الوادي، لحفر عوائق وجر صخور تبطئ من حركة الهجوم الباغي، وقد جاء أكثرهم من قرى نجد والبعض من الإحساء والشارقة ومسقط، تركوا أهلهم وديارهم متحملين وعثاء السفر مخاطرين بأموالهم ودمائهم للدفاع عن حركة التوحيد والإصلاح، متحملين نفقة سفرهم ومعيشتهم وعليقة دوابهم وذخيرتهم، لا يريدون من أحد جزاء ولا شكوراً،

إنما يبغون رضوان العلي القدير، وصد المعتدي الغادر الذي جاء أرضهم لسفك الدماء ونشر الفساد، فدعا الله في سره أن يثبت أقدامهم وينزل عليهم السكينة، ويهبهم نصراً مؤزراً لتعلو كلمة الله. يلزمني هنا الإشارة أنه في سبعينات القرن الرابع عشر (هـ) كان الأستاذ عبدالله بن خميس العلامة الشهير في زيارة لوالدي، الذي عرفه قبل خمس عشرة سنة في قصر السقاف، يلقي قصيدة طلاب دار التوحيد أمام الملك عبدالعزيز رحم الله الجميع، ثم كان آنذاك إداري ومدرس في كلية اللغة والشريعة، وقد قص على الجالسين تفاصيل عديدة عن الدرعية، سنورد بعضها في صلب السيرة، ومما قاله أن معنى "العِلب" بقعة أرض قاحلة، ورد عليه بعض الدرعاوية بالتأكيد أنها الشعب المعقوف مثل المرفق، بدليل وجود مكان آخر قربه يسمى المريفق، لكن والدي لم يشاء المجادلة حول ذلك، وأشار للجميع أن الأستاذ عارف بذلك جيداً، ومسقط رأسه ونشأته في الملقى. كما أنوه أن العلاقة بينهما استمرت سنين، حيث غدا لاحقاً معاون لرئيس القضاة في الرياض، ثم وكيل المواصلات زمن الأمير سلطان. وإني أشهد الله أني رأيت فيه شيمة وعلو نفس وسماحة قل أن توجد في القوم، مع غلظة وحدة لكل من يناوشه. وكانت آخر مرة التقيا فيها عند مدخل المعذر قبل شهور من اغتيال الملك الشهيد (فيصل) وكان والدي لم يزره منذ مشكلة منعه من السفر، وعندما بداء البوابين في الأسئلة تذمر أبي، وفي تلك اللحظة كان إبن خميس (مدير مياه الرياض) خارجاً من الديوان، فنهرهم وسارع لتحيتنا وعاد معنا للمجلس للسلام على الفيصل.

بينما الجد مستغرق في تأملاته وأفكاره ودعائه ، سمع صرخة مدوية بجواره تبين أنها من خادم يشير بها نحو عدد من الفرسان أقبلوا من جهة الجنوب الغربي، يمتطون صهوات جياد عربية أصيلة رشيقة خفيفة الحركة، لا تبدو عليهم مظاهر الترف والخيلاء، أسرع نحوهم الأمير زيد حيث رأوهم يتبادلون التحية بحرارة واشتياق، بينما أوصاهم بعض المرافقين بالبقاء في مكانهم ريثما تصلهم إشارة، قال أحدهم للجد هذا هو شعيب الحريق على يمينك، وهو ينبع من جنوب العمارية ويسلك مجاري وسط التلال حتى يصب هنا في وادي حنيفة، ثم أشار نحو الجنوب الشرقي قائلاً أن هناك مكامن أهل اليمامة ومعهم رهط من حريق نعام. بعد دقائق أمِروا بالتوجه نحو التل الغربي، حيث سار الأمير وصحبه أيضاً، وهناك وجدوا مع الأمير زيد أخوه تركي بن عبدالله الذي لاحظ جدي مقدار طيب ملامحه، إلا أنه لم يتعجل الأمر وتريث حتى يحادثه ملياً ليسبر غور شخصيته، ثم يعايشه زمناً حتى يعرف بعض بواطنه، لكن مبادئه تنبئ عن مناقب مميزة، وله ملامح مرموقة وأنه جرئ ومقدام بلا تهور ولا طيش. صعد الجميع نحو أعلى التل المشرف على نطاق الوادي أمامهم، فتمكن الجد من مشاهدة الأفق الشرقي أمامه، وتبين له أن الضفة التي هم عليها مليئة بالتلال المتفاوتة الارتفاع، لكن الضفة المقابلة يليها سهل منبسط لا يحجزه عن الوادي سوى

جرف غير سحيق،ثم رأى على يساره الشعاب التي تنحدر من التلال وتصب في الوادي، بما في ذلك حريقة وخسيف، وبمنظاره المقرب لاحظ تجمع عدد قليل من عساكر العدو يتجولون شرقاً، وبداء بعضهم ينصب خيامه عند ممرات صغيرة، تنزلق منها الأمطار نحو باطن الوادي، كما توجد تجمعات لعساكر العدو على نفس ضفتهم، قريبة من مصب خسيف وتصل أعلاه. أنوه للأحبة أن البعض في المجلس كانوا متضاربي الرأي حول انحرافات وادي الدرعية، واتجاه مجرى السيل في باطنه، حيث أن الشاطيء الأيسر للمنحدر من الملقى نحو عرقة، يكون اتجاهه شمال شرق ثم ينكسر بحدة ليكون جنوب شرق، لذا كان أبي يوصي بوصف المواقع على أنها في الضفة اليمنى أو اليسرى للمنحدر أسفل الوادي، وليس على اتجاهات حركة الشمس، وهذا سبب تسمية الدرعية بالعوجاء، وسمعتهم يقولون أن ألإمامين المؤسسين ردوا على أحد الطامعين في منافع مبايعته لهم، فقال أن كلماتهم عوجاء وهو يريد شروط مالية محددة، فجاءه الرد "حنا أهل العوجاء" بلا همز! وتنويه للأحبة بأن الملقا هنا ليس هو الحي القائم شمال الرياض حاليا، على خط القصيم، بل يقع غربه أسفل في الوادي وعلى ضفته الغربية.

من نفس مكانهم عجز عن مشاهدة شعيب غبيره حيث حجبته تلال الميمنة، أشار الأمير تركي نحو معسكر صغير على يسارهم، موضحاً أنه الموقع الذي خصص له للدفاع عنه، وهو يقع قرب حافة شعيب حريقة، ونحو اليمين بدا جناح صغير من معسكر ولده يواجه قوات العدو. لاحظ الجد قلة عدد الجنود فيهما، وأن مخيم تركي فيه مدفعان صغيران لا يزيد طولهما عن ذراع إلا قليلا، وذكراه بمدافع الخوالد في الخرج وثويني في الصمان العتيقة الضعيفة. ثم بين لهم أن الإمام قد وضع جل إمكانياته ورجاله تحت قيادة أخاه فيصل، وأمره بالتمركز خلف البوابة الرئيسية الشمالية، في مزرعة سمحة التي يوجد بها قصر قديم، وعلى ميمنة الوادي خارج السور يرابط عماه، وينتشر في ضفتي الوادي مجاهدون معهم بنادق الفتيل في فرق متناثرة، يرأس كل منها أحد إخوة الإمام الكثيرون. أما خارج السور شمالاً في بطن الوادي وعلى جانبيه فوضع ثلاث فرق، أكبرها بقيادة رئيس خرج اليمامة العفيصان، ومعه حشد غفير من المجاهدين جاءوا من السيح والدلم والحوطة والحريق والأفلاج، وهم عماد أهل العارض المعروفين بالشجاعة والإخلاص والثبات على الحق، مع استثناءات لا تنفي القاعدة، بل تؤكدها. كما احتشد خارج السور على الضفة اليمنى، عشرات المجاهدين من أهل الحجاز (حرب وجهينة) بقيادة المضيان، الذي قُبض على قريبه قبل ثلاث سنوات أثناء إمارته للمدينة، ثم أرسل ليشنق في اسطنبول لرفضه موالاة الترك، ورغم أن كثير من تلك القبائل أضحت متحالفة مع الباشا، ويؤجرونه جمالهم لنقل مستلزماته لنجد، إلا أن البعض منهم استمروا على ولائهم لآل سعود.

يوجد قربهم عدد أكبر من المقاتلين بقيادة المزروع، رئيس حَجْرّ اليمامة المستمر على إخلاصه للدعوة الإصلاحية، ومعهم تجهيزات حربية جيدة. من أعلى تلك الرابية تمكنوا من مشاهدة القصور الشاهقة، في منطقة الطريف على العدوة القصوى جنوباً أسفل الوادي، وتساءل الجد عن الدفاعات في تلك الناحية، فأجابه الأمير زيد بأن الإمام قد أمر بقية ذرية عم والده (عبدالله بن محمد بن سعود) لتولي ذلك. بعد هذا انحدروا صوب الوادي وتساءل الأمير عن الفرقة التي يودون الانضمام لها، فسارع الجد بالقول أنهم لا يرضون بغير مرافقتهم منذ ضرماء وحتى يقضي الله أمره. أثناء العشاء تساءلوا عن حرص الجد الدائب لتلافي قيام العدو بحركة التفافية، فأجابهم أنه خلال الثلاث سنوات الماضية، لاحظ كثرة قيام ضباط الترك بالهجوم على القلب، مع تخصيص جزء غير قليل من عساكرهم للهجوم يمنة ويسرة، لتشتيت قوة الدفاع وإدخال الارتباك عليهم، كما فهم من بعض جماعته الذين رافقوا نابليون في غزوه للشام، أن ذلك من التحركات التي أتقنها القادة الأوربيون في الميادين هناك، كما أن كثرة التلال والشعاب المحيطة بحنيفة تستوجب الحذر. تساءل أحد الخثالين عن سبب إقدام الباشا على الشخوص من الملقى نحو العِلب في قِلة، مخاطراً بنفسه ورفاقه مادام لديه كل تلك الخبرات الحربية، فتداولوا حول ذلك ولم يصلوا لتفسير واف. في ظهيرة اليوم التالي قال الأمير تركي أنه سيذهب للإمام، وإذا البعض يريدون مرافقته فلا يزيدون عن ثلاثة من كل أسرة، دخل الجميع من بوابة سمحة معهم الجد علي واثنان من قرابته، فتطلعوا نحو الأسوار المرتفعة، والأبراج المنيعة المحيطة بالوادي، الذي يوجد في باطنه بعض المياه المتجمعة، بعد أن غادرها السيل قبل أيام. ظن الجد أن الركاب سيتوجه نحو قصر سلوى المنيف، في حي الطريف على ميمنة الوادي، والذي سبق أن دخله في العزاء قبل سنوات، لكنهم انحرفوا يساراً نحو البجيري حيث منازل غير مرتفعة، يسكنها بعض كبار معاوني الإمام، حيث شاهدوا قصر من ثلاثة طوابق، دخلوه فوجدوه بسيط الأثاث والمتاع، عرفوا أنه "سمحان" المجاور لسكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ولم يكتمل بنائه إلا بعد وفاته. جلسوا في قاعة فسيحة فيها بعض من ذرية الإمام محمد مؤسس الحركة السعودية، واتجه الأمير تركي نحو أخاه سعود الجالس على الميسرة، فرافقه الجد الّذي كان يعرفه جيداً أثناء منازلة ضرمى، فاستقبلهم ببشاشة وجلس أخوه بجواره، وعاد البقية إلى محلهم المتوسط. بعد لحظات دخل الإمام يواكبه عدد من إخوته وأعمامه وحشد من أقاربه، مما جعل الجد ينحاز نحو طرف المجلس، تساءل الأمير عن حادثة تبادل الطلقات مع الباشا، ولم يتمكن الإمام من إجابته حيث أسرع أحد إخوته بذلك، فقال إن الباشا لم ينزل للوادي بل بقي مع مرافقيه أعلى الجرف، وكان واضحاً إنهم يستطلعون التحصينات، كما كان بعض أعوانه يرسمون تصاوير للمكان، تبين المجرى والتلال المحيطة والشعاب والمباني، وغامر بعضهم بالنزول للأسفل لاختبار قوة نيراننا، وعلمنا من بعض عيوننا في

معسكر الترك، أنهم قد بنوا ما يماثل بلدة الدرعية ومحيطها، من الصلصال والطين بقصد وضع خطط الهجوم والانسحاب. ثم أجاب آخر عن أوضاع الترك حالياً في الملقى، فقال إنهم ينتظرون صعود الدواب بالأحمال الثقيلة وسحب المدافع، حيث واجهوا مقاومة شديدة من الكمائن على درب الحيسية، وتم القضاء على عدد كبير من جنودهم وبهائمهم. لاحظ الجد أن الإمام كان ساهماً شارد النظرات، أشغل نفسه بالتطلع في بندقية حديثة أسندت على الحائط خلفه، وهي بدون فتيل وإنما لها قداحة يشعلها ركاب يحركه الزناد، لكنها تحتاج إلى تلقيم خليط ملح البارود وقطع المعدن من فوهتها في المقدمة. لاحظ الجد في مجلسه عدة طبقات من الحضور، كانت الأولى الإمام وأبنائه وهم واحد لم يبلغ العشرين بعد (سعد) وإثنان مازالا أطفال، ثم إخوته الذين لاحظ الجد منهم أكثر من عشرة، لكنهم قالوا له أن ذرية أبو شوارب يبلغون نحو خمسين، وقد كان بعض إخوة الإمام يتعاملون بأريحية وتبسط، إلا أن بعضهم متعجرف بذيء قميء، والطبقة الثالثة هم أعمام الإمام وذريتهم (أبناء الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود) والرابعة أبناء عم أبيه (الأمير عبدالله بن محمد) ورغم أنهم حفدة المؤسس، إلا إنهم يعاملون بغير لياقة ولا توقير، والطبقة الخامسة ليسوا من نسل المؤسس بل من إخوته، فهم من ذرية سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان، ويلقبون "آل مقرن" ويضاف لهم حشد من آل وطبان وحتى "آل مانع" ذرية المريدي. يضاف لهؤلاء لفيف من المشايخ والفقهاء والقضاة ورؤساء القبائل والأسر النجدية، وجمع من الحرس وقادة المجاهدين وبعض المماليك والخدم، الذين غصت بهم القاعة المتسعة. كاد الجد يغادر المكان لكن الأمير زيد أشار له بالجلوس. حيث سمع أحدهم يسأل عن عدد المحاربين، فساد الصمت المريب في المكان، فسارع الرجل للقول أنه يقصد جنود العدو، وهنا أيضاً لم ينبس الإمام عبدالله ببنت شفه، فسارع أحد إخوته لطمأنة روع الحضور بأنهم لا يزيدون عن أربعة آلاف، حيث اضطر الباشا لترك عدد منهم لحماية مؤخرته، في ينبع والمدينة والحناكية والقصيم والوشم، ولم يتمكن من إحضار سوى عشرة مدافع وثلاث راجمات، فقال آخر من طرف المجلس لكن معه عشرة آلاف من قبائل الحجاز ونجد، فسارع الأمير فيصل بالقوم أنهم مجرد خونة مرتزقة لا يظهرون إلا عند توزيع الغنائم. عند ذاك تحدث الإمام لأول مرة بقوله إن معنا أكثر من عشرين ألف، ثم بدا أنه متذمر من الحديث فسأل أخاه فيصل كيف تحصيناتكم ومكامنكم عند سمحة، وحثه في نبرة متقطعة على الحذر قائلا "تراكم في خشم المدفع" ثم أشار لأحد عماله لتقديم العشاء.

غادر الأمراء الثلاثة المكان وعندما ودعهم أهل الحريق والحوطة، أصر الأمير تركي على دعوتهم لزيارة مكانه فاعتذروا، لكن الأمير زيد قال أنهم على بعد خطوات ومازال الوقت مبكراً، رأى الجد أن زيارة سريعة قصيرة أيسر من أخرى لاحقة، لذا

حث الرفاق على القبول وأداء الواجب في القرب بدل المشقة لاحقا، أشار الأمير لأحد عماله "زهبوا القهوة" وعندما هرول استلحقه قائلا وثلاث ذبائح، لكن أحد الجماعة اعترض حالفاً أنهم لا يقدرون على مزيد من اللحم والشحم. انحدروا من البجيري وساروا على يمين مجرى المطر في باطن الوادي، لم تكد تمضي لحظات إلا وشاهدوا برج شاهق من الحجارة وأعلاه من الطين، عبروا المجرى فخرج لهم بعض عمال الأمير، فهموا منهم أن المجلس الكبير يقع بجوار البرج أعلى الجرف يسار الوادي، امتعض البعض من صعوبة صعود الجرف، رغم أن علوه لا يتجاوز ثمان قامات، لذا تقرر جلوسهم في مكان سفلي منبسط. تحدثوا عما جرى في المجلس، ثم تكلم الجد حول والد الأمراء (عبدالله بن محمد) وعدم قسوته على أهل الحريق، في الحادثة المشار لها سابقا، حينما فُرض على بعضهم النكال قبل ثلاثين سنة. عندها رفع أحد الحواطى يده داعياً على الإمام سعود، الذي بطش بقسوة على ربعه آنذاك وبغى عليهم رغم عدم علاقتهم بالقافلة، فلاحظ الجد تمعض الأمراء فأشار بيده للرجل، ثم أدار الحديث نحو أمر آخر، فقد كان يجالسهم بعض الأعراب الشغوفين بنقل الكلام، ويزيدون عليه ويضعون في فم صاحب المجلس ما قاله غيره! بادر أحد أبناء الأمير تركي بالتذكير أن ضوء القمر سيخفت بعد ساعتين من الغروب، لذا يفضل الرحيل والعودة لمعسكرهم شمالاً، عند المغادرة لاحظوا توجه بعض البدو يستعطون الأمير، فمد يده نحو كيس به ريالات فرنسية نفحهم منها رغم ما بدا من اقتصاد الحال. أثناء مسيرة العودة اقتربت دابة الأمير من الجد، الذي ترحم على والدهم وتذكروا ما جرى قبل وفاته، من اقتراح توليه الإمامة بعد أبو شوارب، وكيف كان أقدر على تدبير الأمور خلاف ما جرى الآن، لكنه سبحانه غالب على أمره. أثناء الطريق خامرت ذهن الجد الهواجس والأفكار، حول حفدة الإمام المؤسس أبناء عبدالله الأربعة، وما يتحلون به من مناقب راقية وخصال حميدة، ثم سأل الله أن يخرج البلاد والعباد من هذه المحنة سالمين، وأن يعيد جيوش هذه الإمبراطورية العظمى إلى قواعدها، تاركة جزيرة العرب في سكون وسبل التجارة والحج سالكة للجميع، ولم يشعر إلا وقد وصل ركابهم إلى المعسكر عند شعيب حُريقة، وقد أفل القمر في ليلته الخامسة أو السادسة.
أشير هنا أنه عند حديث والدي في مجلسه قبل نهاية سبعينات القرن الهجري الماضي، ذكر له أحدهم أن كافة ذرية المؤسس (الإمام محمد بن سعود) الحاضرون في تلك القاعة يومذاك وعددهم ينوف عن المائة، قد انقرضوا ولم يبقى سوى نسل أحد حفدته فقط، وأن كل من يدعي نسبته للمؤسس غير مقبول ما لم يكن من ذلك الحفيد، وأكد والدي بأن آخر من انقطعوا كان من آل صنيتان، الذي سبق أن زار الحريق مبعوثاً من الملك عبدالعزيز، ثم حضر والدي معركة استشهاده في البكيرية، ولم يكن سبب زوال القوم الحروب دائما، فبعضهم قضى نحبه صغيرا أو بالمرض أو إنجاب الإناث فقط وتعددت الأسباب والبقاء لذو الجلال.

عند الضحى جاءه أحد الخدم في وجل مشيراً نحو أعلى الجرف المقابل، فلما دقق النظر شاهد بيارق حمراء يحملها خيالة يطوفون في المنطقة، كأنهم يبحثون عن شيء ما، ثم وجه المنظار نحوهم وعرف من ضخامة جيادهم أنهم مزيد من جنود الباشا، وماهي إلا ساعة أو تكاد حتى تكاثر عددهم وانتشروا على طول الهضبة الشرقية، ثم بدءوا في التجمع في محلات متباعدة، وباشر عمالهم في نصب خيام وبناء مكامن حجرية واجهتها نحو الوادي وخلفيتها نحو مغرزات الرياض. عند الظهيرة وصلت قافلة حافلة بعدد كبير من الدواب، حاملة كثير من المتاع والأثاث ثم انحرفت يساراً ودخلت في ممر يصب في أعلاه بعض مياه الأمطار من السفح الشرقي للوادي، قبل أن يلتقي مع مجرى السيل الضيق في باطن الوادي وهو "العِلب" حيث بوشر في إقامة سرادق ضخم تحيط به الخيام المتنوعة الأشكال، وبدا المكان حصين حيث يمكن الدخول إليه من الغرب، ويحده شمالا وجنوبا الجرف الصخري، أما من الشرق فمنحدر عسر. توجه مزيد من العمال لتسوية الموقع وإزالة بعض الحجارة منه، وقبل المغرب وصل موكب حاشد تبين أن في وسطه الباشا، يحرسه ثلة من رجال ذوو ملابس مميزة قالوا للجد أنهم من البشناق والأرناؤط، كما يجاوره لفيف من الخيالة الأوروبيون، وتوجه الجميع نحو سرادق في وسط ذلك الموقع. ثار جدل ولغط في معسكر المجاهدين، الذين استفزتهم تلك المشاهد العدائية التي لم يكافحها أحد، قبل أن تتمركز في مواقع هجومية، ونقم الكثير لمنعهم من مكافحة المعتدين أثناء المسيرة، وتوجه البعض نحو الأمير الذي أمرهم بالسكون، حيث إن الإمام قد أرسل مندوبيه لإجراء تسوية سلمية مع الغزاة. أدى ذلك لشدة الجدل في المعسكر، فانقسمت الجماعة إلى ثلاث فرق، الأولى من الشباب تحت سن الثلاثين، وأخرى من الشيوخ فوق الستين، حيث تنازعوا في الأمر وقال الشيوخ أن طاعة الإمام واجبة إن جنح للسلم، وأما الجذعان فاستشاطوا غضباً لأنهم أتوا لصد العدو الصائل ، الذي تلزم مهاجمته قبل أن يتحصن، وأنهم تركوا ديارهم وأهلهم مخاطرين بأنفسهم ومالهم في سبيل الله، لم يعاونهم أحد في توفير الذخيرة أو علف ركائبهم، وإن الموقف الحالي سيقود لشر عظيم، أما الجد على ورفاقه منتصفوا العمر فقد آثروا الصمت على المشاركة في اللغط. أشرقت الشمس على مطلع مخيف، فلاحظ الجد أن على الجرف الشرقي ثلاث مجموعات، ترتفع على خيامها رآيات حمراء تبعد كل واحدة عن الأخرى نحو أربعمائة خطوة، وتركض الخيول العملاقة بينها في تدريبات حركية، وترتفع مع الغبار أدخنة الطبخ والتجهيز، أما في الأسفل فقد اكتمل بناء مقر ضخم للباشا وقادته، داخل ممر العلب وفي فسحته الأمامية، كما أقيمت مصدات ومكامن يختفي ورائها الجند، أما في بطن الوادي فقد انتشر مئات العساكر الروم، ومن تبعهم من المصريين والأفارقة وأعراب الحجاز ونجد. شعر الجميع بالحيرة والقنوط مما يجري أمامهم، ثم استشاطوا غضباً لما بلغهم من أحد رجال الأمراء، أن الباشا لقي مندوبي الإمام

باستخفاف وتجهم، فاشترط أولا أن تعاد كافة النفائس الثمينة التي أخذها هو وأبوه من حجرة المدفن الشريف، منذ عام 22 حتى 29 فأجابوه بالموافقة، قائلين أن بعضها أخذه أغوات وفقهاء الحرم النبوي، كما وزعت قيمة بعضها على الفقراء وأخذ أقارب شريف مكة شيء منها، والبقية أمانة ستسلم له فوراً. عند ذاك زاد شروطه بأن يدفع العوض عن نفقاتهم السابقة، مع ديات القتلى وعلاج الجرحى وثمن الذخيرة، فردوا بأن الإمام يلتزم بدفع كافة خراج نجد للباشا وأبوه عشر سنوات، لما سمع ذلك زاد غيه وأمر بأن يجري هدم تلك الأسوار المرتفعة والأبراج الشاهقة، فرد عليه أحد ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب عما لديه من مطالب أخرى، فرد بأن على عبدالله ابن سعود أن يشخص بنفسه إلى إسلامبول (أستانة) ليرى فيه السلطان ما يصلح، ويترك أمر الدرعية لمن يعينه الباشا لذلك. عندها أجابه أحد إخوة الإمام أنهم يريدون بحث ذلك معه فانصرفوا، وعند دخولهم من جهة سمحة التقاهم الأمير فيصل بن سعود، الشجاع الشرس المتعجل فطار عقله من ذلك الأمر، وأخبر المرسلين أن قبول تلك الشروط الدنيئة ستجعله وأكثر إخوته (أبناء سعود الكبير) يخلعون بيعتهم لأخيهم، الذي عليه أن يصعد فوراً من البجيري، حيث المنحدر سهل مع كافة قواته ومدافعه، ويتوجه مع حماة الأبراج نحو الفرق العثمانية أعلى الجرف ويحصدهم، وأنه ورجاله في سمحة سيبادرون بعد الزوال لشن هجوم قوي على العدو في سهل العلب ويبيدهم! أعجب الشباب بتلك الخطة وأعدوا جهازهم للهبوط نحو بطن الوادي والمشاركة في الهجوم الكاسح. ذهب أحدهم مسرعاً للأمير زيد، لكنه عاد يحثهم لعدم الهجوم حتى تصل أوامر، فجلسوا للمداولة وقال أحد كبار السن أن تلك الخطة تفترض أن العدو أصم وأبكم، وهذا غير صحيح فإن سيطرتهم على الجرف الشرقي ينبئ عن دقة التخطيط لديهم، كما لن يقفوا مكتوفي الأيدي أثناء الهجوم، بل سيبادرون بالرد العنيف، خاصة أن لديهم أسلحة أقوى وذات مدى أبعد، وقد أيد الجد علي ذلك واصفاً خطة إخوة الإمام بالخرقاء. قبل العصر سمعوا صوت رماية بعيدة ضعيفة، ثم هرول نحوهم أحد العمال صائحاً "ثارت البندق" في باحة العِلب، توجه الجد نحو رابية تشرف على الوادي، ولم يتمكن بمنظاره من التحقق عما إذا كان بدء الضرب من ناحية العفيصان، أو من جهة الأمير فيصل أخو الإمام، لكن المؤكد أن زخم إطلاق النيران كان يتزايد بوتيرة متسارعة، لذا طلب من أحد عماله سرعة تجهيز فرسه. لم تكد تمضي هنيهة حتى جاءهم مندوب الأمراء بالركوب مع سلاحهم، امتطى صهوة فرسه وخرج لملاقاة الحشد المقبل، ظاناً أنهم سيتوجهون سوية نحو الشمال، ثم يهبطون في حُريقة وينحرفون يميناً نحو بطن الوادي، لكنهم أمروا الجميع بالتوجه نحو السور، حيث كانت الأرض ذات منحدر متوسط لكنه وعر، فوجدوا معسكر ضخم خرج منه كوكبة فرسان، يصاحبون اثنان من الأمراء. علم لاحقاً أنهما عبدالله وعمر أبناء الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وهما إخوة الإمام سعود الكبير أي أعمام الإمام آنذاك

عبدالله بن سعود، وكانت ملامحهما تنم عن الخصال الحميدة مع مظهر بسيط، بقي الأمراء الأربعة في تداول أمرهم، ورغم أن اثنان منهما أبناء عم والد الإمام أي في مقام عماه، إلا أنهم لم يحظوا بالتقدير رغم قربهم، ولم يبد أن ذلك بإيعاز من الإمام عبدالله السمح، بل من بعض إخوته كثيرو العدد قليلو البركة. وقد بدا أنهم ينشدون التصرف الأسلم وليس الأفضل، ليعلم الأحبة إن من أصعب حالات التصرف، هو حينما تبحث عن ما يجنبك اللوم والتوبيخ لا ما يوصلك للنجاح. فقد أشار عليهم البعض أن يدخلوا من كوة في الحائط، ثم ينحرفوا يسارا نحو بوابة سمحة ويشدوا عضد المقاتلين، لكنهم توقعوا أن يغضب منهم الأمير فيصل الشرس، لدخولهم السور وترك مواقعهم، فهو دائم البحث عن المنقود ضد إخوة أبيه وبنو عمه، لذا قرروا تجنب ذلك وأمروا بالتوجه شمالا، نحو شعيب حريقة الذي يفصلهم عنه تل صغير تليه مزرعة مهجورة، حيث تعرقلت مسيرتهم بخاصة من حوائط قصيرة (ذراعين) يبدو أنها أقيمت لحجر البهم التي ترعى هناك. لما انحرفوا صوب باطن الوادي هالهم ما شاهدوا من كثرة دخان البارود، والرجال المجندلين على الأرض بين قتيل وجريح، فتوقفوا للتشاور حول ما يستحسن عمله، كان عددهم نحو ثلاثمائة وقد تولى زمام الأمر عبدالله بن عبدالعزيز عم الإمام، وقد رفض مقترح التوجه بسرعة خاطفة نحو معسكر الباشا لقتله، ورأى شدة وطيس القتال تقع في الضفة الأخرى للوادي، حيث العفيصان في السهل والمزروع في الرابية، ومعهما مئات من أهل العارض (شماله وجنوبه) يدفعون العساكر عن السور، ويتلقون قذائف من المدافع أعلى الجرف ذات فاعلية متدنية. انطلق الأمراء بقيادة عبدالله نحو مجموعة من السودان، تضرب ثورين يجران عربات مدافع في الأرض الوعرة، الذين ما إن رأوهم يرمونهم بالبنادق إلا ولوا هاربين، فاتجه الجد ومعه لفيف من أسرته للاستيلاء على المدافع حيث أنها حديثة وضخمة، فوجدوا أحد الثيران ينازع أنفاسه بعد إصابته في بطنه، ومن شدة رفسه انقلبت معه عربة المدفع، بينما الأخر يخور بشدة لكنه سالم، فمسحوا عليه وسحبوه صوب الشعيب ليتوجهوا به نحو معسكرهم، عند ذاك لاحظوا تقدم نحو مائة من خيالة الباشا ليستنقذوه منهم، فانبطح الكثير عند مجاري الوادي واختباء البعض خلف مكمن حجري، وصبروا حتى اقترب العدو منهم فألهبوهم بنيران بواريدهم، كان الواحد منهم هدفاً سهلا وهو بارز على ظهر حصانه، فسقط سريعا نحو ربعهم وولى بقيتهم أدبارهم هاربين نحو باحة العلب، تفطن الجد في عربة المدفع فرأى الثور الخائف ينطلق نحو مدخل الشعيب يضربه العمال بالسياط. توجه نحو مكان الأمراء فوجدهم يناظرون أربعة مكامن حجرية شاغرة، توجد ناحية الشمال الغربي عنهم، فقروا أن يتوجه كل واحد من أعمام الإمام صوب أحدهم ومعه أحد بنو العم، وأن يكمن عدد من الرجال في الثالث المتأخر، وأما الرابع فتبقى فيه العمالة والذخيرة وبعض الخيل، وأما بقية الرجال والمتاع فيتحصنون في مكان غائر على يمينهم. كان الجد علي مع الأمراء

عمر بن عبدالعزيز وتركي بن عبدالله حفدة المؤسس، الذين وجهوا بعض رجاجيلهم أن يأخذوا الأسرى ذوو الاصابات الطفيفة، وخمسة عشر حصان رومي وكافة الأسلاب، ويتجهوا بهم جنوبا نحو السور ثم يستديروا ليسلموا ذلك للأمير فيصل، بينما كمن البقية يتربصون لقدوم بعض جنود الباشا ليغتالوهم. ولم تمض سوى ساعة حتى شاهدوا جمهرة غفيرة من فرسان العثمانلية مقبلة نحوهم، وانتظروا حتى غدوا في مدى رماية بنادقهم الضعيفة، فأمطروهم بوابل من النيران وردوا بالمثل، مع فارق أن المجاهدين يكمنون في أرضهم مستترين، بينما العدو في الخلاء وربما أن مهمتهم محددة باخلاء الجرحى، فقد كانوا يدورون حول المكان يبحثون عن رفاق لهم ما زالوا على قيد الحياة، لكن الجماعة كانوا قد أخلوا الموقع من الأحياء، لذا بادر بعض الروم لإطلاق نيران بنادقهم الحديثة على من ظهر من المقاومين، بل ترجل بعضهم واتجهوا للتستر خلف بعض الأحجار الكبيرة، لمحاولة قنص بعض المدافعين عن ديارهم، كما حاول نفر منهم التسلل نحو خلف المكامن، معتمدين على تفوق سلاحهم وبعد مداه، لكن المجاهدين تربصوا لهم وقضوا على عدد من المتسللين، وبعد لحظات أرسل الله الفرج حيث وردت فرقة خيالة وهجانة من باطن الوادي، مزودة ببنادق بعيدة المدى مما ألزم الروم للتقهقر نحو مركز قيادتهم. قاموا للترحيب بالقادمين فتبين أنهم بقيادة أحد إخوة فيصل، الذي أرسلهم مع صندوقين من البنادق الحديثة، وخمسة أكياس من خلطة ملح البارود، حيث شكروا الأمراء ورفاقهم على وقفتهم الباسلة ضد العدو الغاشم، كما أوصوهم بالحرص على المدفع الكبير، ونصبه في مكان يضمن فعالية قصوى. عندما اتجهت شمس الأصيل لما وراء التلال، هدأت رماية الطرفين وأخذ كل منهما يتجه لإصلاح وعلاج ما أصابهم، ويعد ما يلزم للغد بعد عناء يوم طويل دامي، وانشغل الصالحون بالتهجد والدعاء لله أن يؤيدهم.

حاول الجد ومن معه في الظلام غير الدامس معرفة طرق تشغيل المدفع، لكنه من طراز حديث ونصحهم الأمير أن لا يعبثوا فيه لئلا ينفجر فيهم، وعند انبلاج الصبح لاحظوا على الضفة الأخرى أن أهل اليمامة يستعدون للرماية، لكن الروم في أعلى الجرف سارعوا بإطلاق قذائف نحوهم، لكنها طائشة فقد صعب على البغاة محاذاة فوهات مدافعهم للأسفل، في تلك اللحظات رأوا أتباع الأمير فيصل يخرجون من السور، يسحبون أربعة مدافع صغيرة وبدئوا يلقمونها بالذخيرة، ثم وجهوها بميل لميمنتهم لتقصف باحة العلب حيث تجمعت حشود العدو، إلا أن ضعف المدى وسوء الحشوة جعلها تسقط بالقرب من تجمع أهل اليمامة. ما إن وصل الجد ورفاقه إلى مكمنهم، حتى أشرق قرص الشمس مبيناً سحابة قاتمة من الدخان والعجاج، تظلل الوادي المزدحم بالمقاتلين، واتضح أن الروم يزمعون السيطرة على الضفة اليمنى, فقد أرسلوا ثلاثة أفواج من الخيالة نحوهم، لكن المجاهدين صدوهم بحماسة وعزيمة,

كما ساندهم كوكبة من فرسان الأمير فيصل، الذين ساعدوا في تعزيز الدفاع عن المكامن, وأيد الله بقدرته أهل التوحيد حتى اندحر المهاجمون يجرون أذيال الخيبة. لكنهم استرجعوا أمرهم فانقلبوا عائدين تجر دوابهم الراجمات, واتجهوا بها نحو باطن الوادي بغرض دك السور والأبراج, حيث محاولتهم في الأمس باءت بالفشل لبعد المدى، كما لوحظ أن المدفعية أعلى الجرف الشرقي قد اقتربت من الحافة, وتغير اتجاه فوهاتها لتصب حممها على السور, فأدى ذلك إلى أن تغدو في مرمى رجال العفيصان في السفح, الذين أمطروها بوابل من طلقاتهم, ثم عاجلهم فريق الأمير تركي بوابل من نيرانهم الكثيفة, بخاصة من البنادق الحديثة ذات الزناد, التي حصلوا عليها بالأمس ووجدوها سريعة الإطلاق قوية النيران, مما أحدث الخلل في قوات العدو. لم يتسن تركيب الراجمات بشكل مستو، حيث الأرض مليئة بالحفر جراء سيلان الأمطار فيها، لكنهم أعدوا إحدى الراجمات عشوائيا، ثم لقموها وصوبوا مقذوفها الذي يزن نحو خمس عشرة أقة نحو البرج الغربي، ولم يرموا "لكن الله رمى" فاتجهت القذيفة نحو الأعلى، ثم أمر مصرف الرياح أن تندفع منحدرة نحو فرقة أخرى للعدو، فسقطت بالقرب منهم وأحدث انفجارها القوي إصابات بينهم، فارتفع التهليل والتكبير من أهل التوحيد نابذوا البدع، شاكرين الله على فضله. فدخل الفزع قلوب العثمانلية وأعوانهم البغاة، وارتجت ركائبهم واختلت صفوفهم، وهرب البعض منهم مندحرين نحو مقر القيادة، وفي أدبارهم بارود ورصاص المجاهدين. توجه الأمير تركي يصحبه عدد كبير من فرقته، يطاردون العدو وتمكن من معهم البنادق الحديثة من إصابة عدد من جنود العدو، إلا أنهم بعد أن وصلوا منتصف الوادي تبين وجود ترتيب لقصفهم بمدفعية الترك، لذا صدر الأمر بإيقاف الملاحقة واستداروا عائدين لمكامنهم، وانشغل البعض في التقاط سلاح وذخيرة ومتاع المصابين، كما استاقوا بعض الخيل السليمة مع كمية كبيرة من الغنائم. قبل وصولهم قرب شاطئ الوادي الأيمن, لاحظوا استنفار وحركة في معسكر العدو، حيث أخذوا يسحبون المدافع نحو السور, كما بدأ الجنود أعلى الجرف يعدلون مواقع مدافعهم, لتصبح مشرفة على مكامن المجاهدين في الباطن, لكنهم حينما باشروا في إطلاقها حدثت ارتجاجات أرضية أدت لانهيار التربة الرطبة, كما انزلقت بعض الأحجار مما أدى إلى تدحرج اثنان من المدافع أسفل الجرف، ساحبة معها بعض المشغلين والعسكر فهووا متكسرين نحو الأسفل, فعادت التهاليل في حناجر المجاهدين، ذاكرين قوله تعالى "من أسس بنيانه على جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين" أما العدو الخبيث فرأى أنه في "يوم نحس مستمر" لذا تراجعوا نحو داخل العِلب. عند ذاك لاحظوا خروج الأمير فيصل بن سعود، أخو الإمام وولد أبوشوارب الجبار، تحيط به كوكبة من فرسانه يسيرون ملوحين براية التوحيد الخفاقة فوق رؤوسهم، حيث كانت تلك المظاهرة عرضة أخرى للقدرات الحربية العربية. تلا ذلك قيام الأمير بحركات خفيفة وهو على

ظهر جواده، حيث قام بالتقاط سيفه من الأرض أثناء الانطلاق بسرعة عالية، كما أدى مع مرافقيه مشاهد بهلوانية تثير الدهشة لخفة حركاتها، وسرعة الالتفاف في وسط الميدان، واستحسن البعض تلك المهارات الطريفة التي تنم عن تدريب دقيق، لكن الغالبية رأت فيها مجرد عبث قد يليق بسائس أو عساف وليس قائد الجبهة الأمامية، المكلف بالدفاع عن دولة الأجداد من عدوان غاشم من قوة عظمى. في الصباح لم يكد الجد وخبرته ينحدرون من مخيمهم نحو بطن الوادي، إلا ولاحظوا استنفار في الجهة المقابلة من عند قوات ابن زرعة، الذين توجهوا شمالا نحو العلب ثم ساندهم بعض من أهل اليمامة، لكن الترك تبادلوا معهم رمايات كثيفة مما دفع الجد وخبرته للانحراف يميناً نحو الشرق، لتأييد اخوانهم أهل اليمامة ومن معهم من المرابطين في الوادي. لم يدم ذلك طويلا حيث لأمر ما شاهدوا الجمع يرتدون لمواقعهم الخلفية، ثم استمر السجال بين المتقاتلين وحدث كر وفر من الطرفين. عند المغرب أوصاهم الأمير تركي بأن يهجعوا إلى مراقدهم باكراً، حيث ستتوجه كافة جموع الدرعية بقيادة الإمام عبدالله، إلى خارج السور ثم يغيرون مع كافة أهل التوحيد على معسكر البغاة، وعلى الجميع الاستعداد لتلك المنازلة الحاسمة، بالدعاء لله لتأييدهم بنصره، مع إعداد العدة ومستلزمات المعركة الفاصلة. شاهد الجد علي عدة آلاف من المؤمنين، بكامل جهازهم وركابهم يتجهون شمالا ببيارقهم، إلا أنه لم ير الإمام في موقعه، بل كان الأمير فيصل على المقدمة. وفي أثناء توجههم لمساندة تلك العملية، لاحظ عدة مئات من المجاهدين في أعلى الجرف، يتأهبون للهجوم على الترك المقيمين هناك، وما أن اقتربت الجموع من مجرى الباطن إلا وانهمرت عليهم طلقات البارود من البنادق البعيدة المدى، لكن بسالة الأمير فيصل والمحيطين به, دفعتهم للتجاوز بسرعة البرق تلك المنطقة، ودخلوا وسط جنود العدو فوطئوا بعضهم بالخيل، واعملوا سيوفهم في آخرين، ففر الكثير منهم باتجاه الشمال الشرقي. بينما كمن الجد ورفاقه خلف أحد السواتر، شاهدوا إشارات من مقر الباشا بواسطة البيارق ذات الألوان المختلفة، موجهة للقوات المحتشدة أعلى الجرف، ويقوم بها جنود يمسك كل واحد بعلم في إحدى يديه، يحركها في اتجاهات مختلفة يتعرف على معناها ضباط الإشارة في الأعلى، وأمكن ملاحظة ذلك بدقة بواسطة المنظار المقرب، لكن يستحيل فهم مضمونها حيث إن لها شفرة سرية تحددها القيادة. تلا ذلك تحرك واسع لجيش الترك في الأعلى، حيث بداءت المدافع وعتادها تقترب من حافة الجرف، ثم باشروا في إطلاق نيران كثيفة نحو قوات ابن سعود في الأسفل، إلا أن نسبة الإصابة كانت غير عالية، لذا باشروا في تقريب المدفعية أكثر نحو الحد، ثم باشروا في استئناف القصف، الذي أدت حدته إلى انهيار جزء من بعض الصخور وتدحرجها نحو أسفل الوادي، وتلا ذلك سقوط اثنان من المدافع مع مشغليها في باطن المحل الذي يزيد عمقه عن عشر قامات، مما تسبب في القضاء عليهم. أدى الأمر إلى توقف بقية المدافع، وتحفز

المجاهدين لانتهاز الفرصة المواتية، وسارعوا للتقدم نحو مقر قيادة العدو في باحة العِلب، لكنهم ما إن وصلوا قرب مجرى السيل الضيق، إلا وتعرضوا لقذائف كثيفة من مدفعية الميدان المحشوة بقطع المعدن والحجارة، التي فتكت بركائب المجاهدين وسقط عدد كبير منهم، ورغم هذا إستمر الأمير فيصل والحشود الغفيرة معه في عبور المجرى والتقدم بسرعة نحو العدو. لبرهة قصيرة ظن الكثير أن الأمر قد يحسم قريباً، حيث لاحظ من معهم مناظير (درابيل) أن بعض كبار قادة الباشا وربما هو أيضا، قد امتطوا البغال والحمير صاعدين أعلى الشعيب الوعر شرقا، حيث يصعب على الخيل والإبل التسلق، وطلب البعض من الأمير تركي الإذن بالتوجه لمساندة رفاقهم، لكنه بفكره الحذر والهادئ حثهم على التريث، لحين استجلاء الحقيقة وخشية من حدوث التفاف غادر للعدو نحو ميسرة المهاجمين، بخاصة من العسكر المرابطين شمال حريقة، كما طلب من البعض امتطاء الركائب مع الكمون قرب السواتر متأهبين للرد. ثم لاحظوا أن بعض رفاقهم قد انطلقوا على أباعرهم للميدان، صائحين لا نرضى أن نكون مع الخوالف، مما ألهب حماس آخرين دعوا الأمير ألا يجبرهم على العصيان، ويأذن لهم للتوجه لمساندة رفاقهم في مقدمة الجيش الذي غدا نصره وشيكاً. كان الأمير فيصل في القلب نحو المقدمة مندفعاً تجاه مركز العدو، وعلى الميمنة أخوه سعد يرأس حشد يفوق عدده ألف مقاتل، فيه مجموعات من أهل الدرعية وسدير واليمامة، بقيادة رجال من المزاريع والمعامرة والدغيثر وغيرهم، وقد اندفعوا شمالاً بسرعة رغم أن أرضهم وعرة أسفل الجرف الصخري، إلا أنهم أقرب لشِعْب العلب مركز الباشا، أما الميسرة فعليها الأمير فهد أخو فيصل، يعاونه أحد مماليك والدهم (أبوشوارب) يقال له فراج، يتسم بالشجاعة والقسوة والتهور، وعلى المؤخرة قرب السور أخوهم ابراهيم. عند ذاك لاحظ الجد ورفاقه حدث مخيف، فقد شاهدوا بعض جنود العدو المنبطحين يتقهقرون مهرولين نحو قاعدتهم وبعضهم يحمل مشعل، ثم بدأت الأرض تلتهب تحت ركائب إخوانهم المجاهدين، مع فرقعات مدوية مصحوبة بلهب وانفجار، لم تكن من رماية المدافع ولم يعرف كنهها، وصاح أحد الرفاق اللهم سلم إخواننا من الألغام! شرح لهم الرجل أنه قد رأى ذلك في الرس قبل شهور، وأنها عبوات معدنية (صفيح) يبلغ وزن الواحدة خمسين رطلا محشوة بملح البارود وقطع المعدن والحصى القاسي، وهي مكعبة الشكل مقفلة من جوانبها الستة، لها شريط عرضه إصبعين يعمل كفتيل، وهي في الأصل توضع في حفر أسفل الأسوار بقصد هدمها، لكنهم هنا استخدموها لقتل المهاجمين، وذلك بوضع نحو عشرين منها في عدة حفر تصطف على طريق سيرهم، وعلى أن يكمن الجنود خلفها حتى تصدر لهم إشارة الإشعال، ثم يولوا هاربين حتى تنفجر لحظة مرور الفرسان بجوارها. كانت تلك الصفائح إذا انفجرت في الوقت المناسب، تؤدي للفتك بالخيل والإبل المارة بجوارها، اكن الله سلم فإن ثلثها قد انفجر وليس بقربها أحد، والثلث الثاني لم ينفجر لعطب في الفتيل أو خلل

داخل العبوة، أما تلك التي اشتعلت أثناء مرور الجنود جوارها فقد أحدثت إصابات بليغة. لم يبالي الأمير فيصل بها واندفع مع رفاقه نحو البغاة، غير مكترثين بم يسمعوه خلفهم، لكن تبين أن هناك خط آخر من تلك الألغام أمامهم، جرى صفه وترتيبه بشكل أكثر فاعلية، وعندما بلغوه بدأت الفرقعات المدوية حولهم، وتطايرت أشلاء الركائب في جو السماء وقتل الكثير من الرجال، لذا لوى بعضهم عنان فرسه وانقلب عائداً نحو سور الدرعية. استمر فيصل بحماسته البطولية مع فوج من رجاجيله الشجعان في تقدمهم، حتى بدأت قذائف المدفعية تنهمر عليهم من باحة العلب، تقتل وتجرح من تصيبه الرماية العشوائية من عساكر الباشا، حينذاك رأى الأمير أن ليس له بد من التحيز نحو فئته في المؤخرة، فأصدر إشارة الانحراف والعودة للقاعدة. أثناء ذلك كان الجد يراقب الوضع بمنظاره المقرب، عندما سمع الأمير تركي ينادي بالهجوم عل الترك المتحصنين شمال شعيب الحريقة، الذين تأهبوا لمباغتة المنسحبين من جهة الشمال، لذا سارع بلمز فرسه التي عدت تسابق الريح للحاق بالأمير وأخاه وولده، حيث تمكنت فرقتهم من إصابة عدد من عساكر الروم، مما أجبرهم على الانحراف يساراً نحو خسيف، ثم الانهزام فارين إلى مخيمهم أسفل التل. كاد البعض أن يطاردهم لكن تركي بن عبدالله كان يشاهد العدد الكبير من قوات العدو المتمترسة في المعسكر، فأمر بالكف عن ذلك وأرسل بعض جنوده شمالا لإنقاذ الجرحى، كما وجه خمسة منهم بالبحث عما لم ينفجر من الألغام وجلبها إليه لدراسة طبائعها، ومعرفة سبل تفادي أضرارها أو صنع ما يشابهها لمقاومة العدو الصائل على أهل التوحيد. في العشي تحلقوا حول إحدى تلك الصفائح، وفتحوا جوفها لمعرفة مكونات الحشوة، ثم أرسل اثنتان منها مع رجل من أهل الرس، إلى الأمير فيصل ليبين له كيف يزمع الباشا استخدامها لهدم أجزاء من السور، بعد أن يضع في كل حفرة أسفله عشر صفائح مربوطة بفتيل واحد، ثم تنفجر سوياً لتدك قواعد الحائط الشمالي. تساءل أحدهم عن معنى "لغم" فأجابه لغوي عارف بقواعد اللغة، أنه يعني الكلام من أسفل اللسان بكلمات غير ظاهرة، بينما قال آخر أنها "خبيئة" وقال ثالث أنها كلمة تركية تعني الفخ، ثم أخذ الكل يدلي بدلوه أما الجد علي فقال أنه إنما يفكر في سبل تلافي أضرارها، وطرق عمل ما هو أكثر فتكاً. عندما غلبهم النعاس وبداء البعض يأوي لمرقده، سمعوا لغط ثم صياح فهب الجميع لاستطلاع الأمر، فجدوا بعض المحاربين يمسكون بتلابيب ثلاثة رجال، قالوا أنهم يريدون التسلل إلى المخيم واقتادوهم نحو مكان الأمراء، بين الرجال أنهم فارين من قوات الباشا، وكانوا يرفعون أصواتهم بتحية الإسلام عندما اقتربوا من المعسكر، ويريدون اللجوء عندهم من طغيان عساكر الترك. ادعى اثنان منهم أنهم مصريين يعملون سماكة في بحرهم، وقد اقتيدوا إلى هذه البلاد سخرة ضمن من وقع عليهم فرض الجهادية، وأما الثالث فهو أسمر البشرة ظنوه في العتمة سوداني، لكنه أخبرهم وفرائصه ترتعد أنه نوبي، أرسله عمدة قريته مع المماليك طباخاً، وقد

تعرض للأذى لأنه لا يحسن الطبخ التركي. شك الكثير في روايتهم وظنوا أنهم جواسيس للباشا، خاصة أن رائحة التوباك تفوح من ملابس المصريين، بينما يدعون أنهم من المحبين للسنة ومنهج السلف، كما كان حديثهم ينم عن معرفة وثقة لا تكون في عمال الحراسة كما إدعوا، أما النوبي فبدا بسيطاً غير مدرك لما يدور حوله، لذا باشروا في امتحانهم لمعرفة بواطنهم فلم يصلوا لشيء، ورغم اصرار بعض من يعدون من أهل الفراسة على وجوب أخذهم أسرى، إلا أن الجد علي أوصى بحسن الظن فيهم، وأنهم جاءوا وقد حصرت صدورهم أن يقاتلونا أو يقاتلوا قومهم، لذا يمكن الاستفادة من معرفتهم مع احكام الرقابة عليهم. وافق الأمير تركي على بقائهم وهو ما بين لاحقاً خطاء جسيم في تقدير الجد رحمه الله، وباشروا في سؤالهم عن المدفع الذي غنموه بالأمس، فلما رأوه قالوا لهم لسنا عارفين بذلك، لكنهم حسبوا أنه ليس من النوع الذي يحشى بالبارود والمعدن والحصى، بل ربما يكون من التي توضع بداخلها كرة من الحديد والرصاص، والتي تسمى عندهم قنابل تستخدم لدك الحوائط. تجادل الحضور حول الفرق بين القنابر والقنابل التي لم يسمعوا عنها من قبل، فقال أحدهم أنها هي نفسها وآخر زعم أن القنابل تنفجر عند الارتطام بالهدف. أبين للأحبة أنني سمعت في المجلس بمكة المكرمة (منتصف القرن العشرين) نقاش حول ذلك، فقال رجل أن قنبلة اسم مقذوف ثقيل يخرج من المدفع، وأصله في أوروبا كرة المدفع (كنون بول) لكن الترك جعلوا الكاف فارسية (قاف) وجعلوا آخرها ممدودا فنطقوها (قنبولا) أما القنبرة فهي الحمامة السوداء، وقد لاحظ العرب أن مقذوفات المدافع آنذاك على نوعين، أولها ما يخرج علي شكل شظايا معدنية صغيرة حارة، تنتشر على فضاء متسع وتفتك بالمشاة، وأخري تخرج من فوهة المدفع في كتلة ثقيلة تشبه الطائر الأسود، وتستخدم لدك البنايات والجدران. أما الألغام فسمعتهم يقولون أن تلك العبوات الصفيح (20 كيلو) مع فتيل للإشعال لا علاقة لها بألغام القرن العشرين، التي تنفجر بمجرد أن يطأ عليها الإنسان أو المركبة أو ترتطم بها السفينة في البحر، كما ناقشوا أحدث أنواع الألغام آنذاك والتي تنفجر بمجرد شعورها بالاهتزاز بجوارها، كما شرح لهم جالس أن هناك تطوير لأنواع تسمى (بوبي تراب) بها حساسات كهرومغناطيسية، وتوضع في المباني الخالية وبمجرد أن يدخلها العدو تنفجر فيه.

في بطن وادي الدرعية مطلع الثلث الثاني من القرن الثالث عشر هجري، انطلق الجد الأكبر علي بن حمد على جواده قبل بزوغ الشمس، ثم أنشاء مع رفاقه كتيبة للهجوم على فرقة الترك الكامنة شمال الحريقة بمجرد تلقي الإشارة، خرج الأمير فيصل في حشد ضخم متوجهاً نحو باحة العِلب، وقد رتبوا وضعهم بأن يتلافوا المسير تجاه حملة المشاعل، حتى لا تصيبهم انفجارات الصفائح المخبأة في الحفر، وقد وفقهم الله للالتفاف في المنطقة العريضة والانطلاق نحو شعيب العِلب حيث مقر قيادة البغاة. ثم

انطلق الجد ورفاقه شمالا لعرقلة أي محاولة لتطويق ميسرة المهاجمين، أو الغدر بهم من الخلف، وبينما الأمير فيصل يقود المقدمة والقلب، باشر العفيصان ومن معه من جيش الجمالين في الهجوم من الميمنة على مكامن الدفاع التركية، حيث يوجد حشد عظيم من جنود القيروان ومراكش، خلف متاريس حجرية ومعهم بنادق حديثة قوية وسريعة الإشعال. نزل الأمير تركي بن عبدالله وأبنائه وقرابته سريعاً، للمشاركة في الهجوم على المقاتلين جهة الميسرة، كما أرسل عدد من رجاله الأقوياء نحو بطن الوادي، لنبذ حملة المشاعل عن مكامنهم وجلب ما يمكنهم حمله من صفائح الألغام، وتمكنوا بعون الله من منع الترك من الهجوم على مؤخرة المتقدمين نحو الباشا. أعمل الجد وزملائه رماياتهم في عساكر العدو، وأجبروهم على وقف زحفهم صوب الشمال الشرقي، ثم طاردوا المتقهقرين نحو المكامن في السفح الأيمن للوادي (جنوب خسيف) وأعملوا سيوفهم وبارودهم فيمن تأخر عن اللحاق بصحبه المنهزمين، ثم نزلوا من على الدواب ليتعاملوا مع الجرحى، ويسلبوا ما مع القتلى من سلاح وذخيرة ودروع. أخذ الجد أربعة فرود حديثة ذات الزناد وبدون فتيلة، وعدد من أكياس بارودها الحار المحتوي على ملح أقل ونطرون (نترات) وكبريت أكثر، مما يجعله سريع الاشتعال بمجرد أدنى شرارة من الزناد، وفي المساء توجه للأمير تركي وسلمه ذلك ليكون في الخمس وليس مغلولا، لكنه أفاده أن هذه أسلاب والقتال مستعر وعليه الاستفادة منه في منازلة الغد، ثم قبل منه اثنان من الفرود وبعض أكياس اللقيم، ولما بحث عن أحد أفراد أسرته ليعطيه فرد مع منطقته (حزام) وجدهم جميعاً قد حازوا على مثل ذلك وأكثر، فقدمه لرجل من أسرة أخرى لم يكن على خاصرته سوى خنجر. تكررت الوقائع في اليوم التالي ولوحظ تدني عزيمة معظم جنود العدو، الذين جاءوا من بلاد بعيدة مكرهين على القتال في بلاد قاحلة، أهلها عازمون على الدفاع بضراوة عن ديارهم، لا يبالون بالتضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل رفع كلمة الله، ونبذ البدع وتحريف الإسلام من قبل الطوائف الضالة. لوحظ أن عسكر الباشا على ضفتهم من الوادي، قد كفوا عن الخروج نحو الباطن، واكتفوا بالبقاء خلف مكامنهم الحجرية، المبنية على شكل قوس حدبته نحو الشرق، ومقعرته تتجه للتل الصغير خلفهم، وعليهم الوقوف وإسناد بنادقهم على ذروة الحائط بينما رؤوسهم مكشوفة، أما سواتر الدرعية فهي أعلى من قامة الرجل الوسط، وبها فتحات على عدة مستويات تتيح لهم الرماية وهو وقوف، أو وهم في وضع القرفصاء أو منبطحين، مما يساعدهم على إنزال إصابات فادحة في العدو رغم صغر بنادقهم.

بعد ليلتين كان الجد وبعض أقاربه قد زادت ظنونهم في اللاجئين المصريين، الذين أكثروا من التجول في أعلى شعيب الحريقة، ثم يتطلعون للبحث عن سبل الوصول منه نحو غبيره، لذا جلسوا يسامرونهم عسى أن يتمكنوا من سبر غور نواياهم. ثم

أرهفوا السمع نحو وسط وادي حنيفة، حيث ارتفعت اصوات معاول وفؤوس تشتغل هناك، وقرر الجد أن يستطلع الأمر من أعلى رابية مجاورة لهم، وكان القمر شبه مكتمل ولاحظ بمنظاره عدد كبير من عمال العدو، وقد انتشروا في نواحي متفرقة من بطن الوادي يحفرون وينقلون التراب، بطريقة غير واضحة المقصد أو الغاية. ولما عاد لمجلسهم وجد أحد المصريين يحادث الرفاق وبعض خواص الأمير، عن أسلوب الباشا في توجيه العمل، فبين لهم أنه يحيط نفسه بمجموعة من العارفين بفنون الحرب، ولا يزج قواته في مواقع غير مأمونة العواقب، كما يتفادى الجراءة الطائشة وأعمال الشجاعة الخرقاء، ويدخل المجابهة بعد أن يعرف سبل الخروج منها، ثم لا ينزل مكان إلا وقد عرف سبل الدفاع عنه، ومكامن الضعف وتلافي الفشل. وأوضح لهم أن الباشا يحسب قدراته الفعلية بلا مبالغة، ويتعرف على إمكانيات خصمه وطرق مكافحتها، ويروم فهم طرق الفوز على العدو، ولا يتوانى عن استخدام كافة الأساليب للنجاح، بما فيها الالتفاف والغدر والكذب والخداع، مع قسوة متناهية وقوة مفرطة غاشمة. قاطعهم الجد بأن أوضح قلقه مما يجري في الوادي، وأوصى بأن يتم إشعار الأمراء بذلك لأخذ الأهبة قبل الصباح، لكن المصري سارع بالقول أن الأمر لا يتجاوز إعداد تسويات في الموقع، وإزالة بعض العوائق الميدانية. حينذاك زادت الريبة لدى الجميع حيث الرجل عندهم منذ أيام، ولم يقم لمشاهدة المكان في العتمة، فكيف عرف عما يجريه العدو من تحركات ليلية؟ وبدا زميل الرجل يشير له خفية بالحذر في كلامه، كما أوصى أحد خواص الأمير أنه قد خلد للنوم ولا داع للتكدير. عند انبلاج الصباح تبين المشهد المخيف في العلب، فقد شيد عمال العدو تبات صغيرة ركزوا عليها عدد كبير من المدافع مختلفة الأحجام، كانت على شكل هلالين، الجنوبي القريب من السور أكبر من الذي خلفه، وذلك لتصحيح التصويب نحو الهدف بدقة، حيث كانت سابقاً ترتكز على أرضية الوادي غير المنبسطة، لكن ذلك سيجعلها مع مشغليها مكشوفين لقناصة المجاهدين. سارع بعض الرجال لإخبار الأمير تركي فوجدوه في مصلاه يسبح منتظراً شعاع الشمس، فقال لهم أن الأمير فيصل لديه جنود في أعلى الأبراج، ولابد أنهم قد أحاطوه علماً بذلك وسيتدبر الأمر. في لحظتها جاء رجل فزع يصيح بأنهم بحثوا عن المصريين ولم يجدوهم، أما النوبي ففي مطبخه يجهز الطعام، اقترح البعض سرعة قتله لأنه جاسوس مثل رفاقه الهاربين، فقال آخر أولئك لم يكونوا جواسيس، لكنكم أكثرتم الريبة فيهم فخافوا على أنفسهم، وقد علمنا منهم كثير من طرق القتال لدى العدو، ولم نكشف لهم أي سر لدينا وأمورنا كلها مكشوفة، فرد عليه أحدهم بأنهم تجولوا في نواحي معسكرنا، وعرفوا سواترنا وربما رسموا مواقع التلال والشعاب. لزم الجد الصمت حيث يلومه البعض لأنه أحسن الظن في الخونة، وآثر السكوت ثم ركب فرسه متجهاً نحو الرفاق في الأسفل، وهناك شاهد أفواج من قوات فيصل مرابطة قرب بوابة سمحة. وبعد ساعة شاهد حشد من "الإبل المردوفة" يقودها

رجل يمسك الخطام بيمناه، وعلق على كتفه الأيسر صفيحة معدن، طولها نحو قامة وارتفاعها ذراعين (90سم) وخلفه مقاتل مسلح منكفيء ليستتر من الرماية، واندهش البعض من ذلك لكن الجد كان قد لاحظ مثل تلك الصفائح على بعض أبواب الدرعية الخشبية. في ذلك الزمن كانت المصاهر ببلاد العرب لا تسبك المعدن إلا في قطع لا يزيد عرضها عن كف الرجل، وطولها يقل عن القامة، إلا أن تطوير صناعة الحديد الصلب في أوروبا، جعلهم يتمكنون من سبك صفائح كبيرة ثم تورد للهند في السفن الضخمة. شاهد الجد راية فيصل وإخوته وهم يديرون الالتحام، ثم لاحظ ثقل المردوفة وبطء حركتها، واقتصار هجومها على الجانب الأيسر، لكن الأمراء وجنودهم سارعوا بمهاجمة مواقع المدفعية، ولما حاولوا سحب بعضها تبين أن جثث القتلى مربوطة فيها بالسلاسل. ثم انطلق مع تركي نحو الهدف المحدد لهم على الميسرة، ولم يخرج لمنازلتهم أحد، بل بقي العسكر خلف المكامن يرمونهم بالبنادق، وحاول بعض شباب المجاهدين الالتفاف على سواتر العدو، ونجحوا في بعضها لكن القذائف من أعلى التل منعت الاقتراب من بعضها الآخر، وبقيت الحال في كر وفر حتى العصر. أصاب الجد هلع جم حينما شاهد بعض الرفاق يحملون ابن عمه، وقد غطت الدماء وجهه وأصبح عاجزاً عن الرؤية، فهرول نحوه خائفاً أن يكون قد أصيب في عينيه بشظايا الرماية، وباشر أحد المعالجين في معاينة الرأس بما لديه من قدرة محدودة، ثم غسل الدماء بماء بارد وأحضر مسحوق أخضر ربطه على جبهته، وبشرهم أن الإصابة طفيفة في أعلى الرأس والعين سليمة، وأن النزف من أعلى ثم أحضر له شراب، وأمره بعدم التمدد على الفراش، بل عليه الجلوس منتصباً. في اليوم التالي استأنف القوم التعارك، وحدثت مناوشات عديدة بدون نتائج حاسمة، لكن عند الظهر لاحظوا اضطراب شديد في جبهة القتال، جوار راية الأمير فيصل وإخوته، وبدا هناك هرج ومرج ثم شاهدوا الرجال في المقدمة ينسحبون صوب البوابة الكبرى، بينما استمر الأمير تركي وفرقته في صد البغاة عن التقدم نحو بطن الوادي، أما جناح الميمنة فاستمر في النضال رغم حمم المدفعية التي تنهال عليهم من أعلى الجرف. في العشي كان لدى الأمير تركي بعض من أقاربه، من بينهم أعمام الإمام واثنان من إخوته الموكل لهم حفظ بوابة السور الواقعة على الضفة اليمنى للمنحدر مع الوادي، حيث دار النقاش حول ما جرى في الظهيرة، حيث تضاربت الأقوال بشأن إصابة الأمير فيصل بجراح خطيرة، وذكر آخرون أنه ربما توفي في المنازلة، لكنهم أجمعوا الرأي حول غياب أي معلومات من الأمير القائد أو الإمام، وأنهم لا يكادون يدركون شيء مما يحدث في سمحة أو في الطريف، وفيما عدا تعليمات شفوية موجزة تردهم عند الفجر، فلا يدركون أوضاع المعركة ضد الباشا الطاغوت، وما يخبرهم به بعض الخدم يناقض بعضه البعض. أما المعلومات عن العدو فهي غائبة أيضا، وقال الأمير تركي أن أحد المصريين الهاربين، قد أسر إليه أن ضباط الباشا قد أيقنوا بصعوبة

اقتحام البوابات الشمالية، من جهة العِلب وأنهم يعدون الخطط للهجوم على السور من الجهتين الشرقية والغربية.

في الصباح الباكر وصلتهم إشارة عدم إطلاق النار قطعياً، حيث علم الباشا بإصابة الأمير فأرسل إليه بعض أطبائه، مع اقتراح هدنة ثلاثة أيام للنقاهة من العِلة، ووافق الأمير على ذلك مع رفض علاجاتهم خشية التسمم. وجه الأمير بالاستفادة من الهدنة لتعزيز الدفاعات والتحصينات، في معسكرهم وبخاصة الجزء الواقع في الأسفل قريباً من شاطئ الوادي، كما تباحث مع بني عمه (أعمام الإمام) حول ترتيبات الدفاع عن مكانهم المتقاربة، مما يقوي قدراتهم على التصدي لأي هجوم مباغت من البغاة، وأمضى الجد بقية يومه في عيادة ابن عمه، وتضميد جراحه شاكراً الله أن دفع عنه ما هو أعظم. عند عصر اليوم التالي كان يراقب تحركات حثيثة للعدو، في كافة الأرجاء تحرك الضباط والجنود وعدد غفير من العمال، لإقامة سواتر وتحصينات ومكامن للقناصة، كما جرى تحريك المدافع والراجمات لتكون في مواقع راصدة لكل حركة في الوادي، وسحبت قطع المدافع نحو أعلى الجرف، وبنيت لها قواعد متينة حتى لا تنزلق أثناء شدة الرمي. شعر الجد ورفاقه بالغيظ والأسى لعدم تمكنهم من مكافحة تلك العمليات، التي تتنافى مع لب الغرض من الهدنة وتجعلها باطلة، حيث على الطرفين عدم إحداث تغييرات أصلية أو إنشاءات جديدة في ساحة القتال، لكن الأوامر كانت واضحة بعدم مشاكسة! العدو، فاسترجعوا الله صابرين محتسبين أنهم في طاعة الله ثم ولاة الأمر. بعد ساعة أحسوا بنسيم بارد من جهة الشمال، وبعدها بدقائق شاهدوا في الأفق الشرقي عاصفة كأنها من الرماد تقترب من الدرعية، وفي لحظات غدا المكان في ظلمة واشتدت سرعة الريح وصارت صرصراً عاتية، حجبت الرؤية واقتلعت الخيام وتطايرت أكياس الذخيرة الصغار في جو السماء، وارتفع الغبار والتراب وأغصان الشجر والخُمام حتى انسدت الأنفاس، وفزع الناس للصراخ والعويل بينما توجه الصالحون بالدعاء لله أن يلطف بهم، ويجيرهم من عذابه يوم يبعث عباده وفي يومهم ذاك. استمر ذلك الهيجان حتى صباح اليوم التالي، فقدر مصرف الرياح أن تسوق سحاب خفيف رش قطرات من المطر، وسريعاً غدا وادي حنيفة ساكن ذو روائح طيبة مثل البساتين. كان الجد في قلق شديد من احتمال استدارة جنود الباشا حولهم، والانقضاض عليهم من الخلف (أعلى) بقصد التوجه نحو الجزء الغربي من الحائط، ثم صاحب بعض أقاربه في نزهة على الأقدام ومعهم اثنان من أهل الدرعية. لاحظوا وعورة التلال خلفهم وصعوبة تسلقها من خيل الروم، ومع هذا فقد استحسنوا وضع كتيبة صغيرة هناك تتولى الدفاع الأولي ضد طليعة المهاجمين، وتعطي إشارة للمعسكر لمساندتهم، ووافق الأمير تركي على المقترح وكلف إبنه فهد لإقامة نقطة دفاع في أعلى التل. بعد ذلك اقترح أحد الرفاق الانحدار للأسفل، لمعاينة

السور الغربي ونصحهم الجد بوجوب الاستئذان أولا، حيث تلك المنطقة في عهدة أعمام الإمام وبعض إخوته، لكنهم رفضوا لأنهم في نزهة وتجوال وغير مسلحين، فل يجد بد من المشي معهم في وجل. شاهد برج ضخم منفصل عن الجدار، أقيم على مرتفع يبعد عنه نحو أربعين خطوة، ظن الجد أن سبب ذلك توفر الحجارة الضخمة، أما الحائط فقاعدته حجرية لا تبدو سميكة، و بقيته من الطين اللبن الهش غير المنيع، رأى باب صغير مقفل، أعلاه مرقب فيه رجلان تعارفوا بينهم، وفهم من أحد الدرعاوية أن المكان يسمى جب غياض، لأن حوله حفائر غير عميقة وتتجمع فيه مياه عذبة لكنها سرعان ما تغيض للأسفل ثم تنقطع كلياً، لاحظ وجود مبنى طيني مجصص في داخل السور، قيل له أنه كان مقر إقامة بعض ذرية الإمام سعود (أبو شوارب) الذين عارضوا بعض تصرفات والدهم وعصوه، مما جعلهم يحتجزون فيه بعد تعرضهم للإساءة والأذى (وربما الموت؟) جزاء فعلهم ذاك. في ليلة مقمرة أعد آل خثلان قبلها عشاء مبسط، لقوم من الحريق حضره الأمير تركي، وتبادلوا الرأي حول وضعهم على الشاطئ المقابل، وأسلوب قيادتهم هناك ومجابهة المدفعية أعلى الجرف، وقد علموا منهم أن الأمر في يد رجل من آل عايذ (صهر العفيصان) اللذان يتشاوران دائماً حول سبل تلافي الإصابة من رماية العدو، وأنهم يقيمون في شعيب صغير توجد به زراعة لأحد عمال الإمام سعود، يقال له ابن مغيصيب وهو كبير السن حاد الطباع، ينهر من يقترب من مزروعاته غير مكترث بما يدور حوله من قتال. سألهم الجد عن أقرب بوابة منهم، فقالوا أنها كوة صغيرة تفتح نحو منزل بسيط للمغيصيب، ويستعملها المشاة للدخول للدرعية. تحدث الجد مع الأمير تركي حول أهمية تعزيز الدفاع عن المداخل الجانبية، حتى لا يستغلها العدو للنفاذ نحو سمحة من الخلف، وقد أيد الكثير ذلك الرأي ماعدا أحد الأعراب، الذي أشار أن خليفة اسطنبول لم يرسل حشود مؤلفة، ليستخدم أبواب صغيرة للنفاذ، بل سيستخدم الباشا مدافعه ومتفجراته لدك الأسوار.

قبل طلوع الشمس سمعوا نقر الطبول، ونفخ المزامير وكتائب عديدة تخرج من العلب متجهة نحو سور الدرعية، وظهر للجد أن إبراهيم يقبع في مؤخرة القلب، يحيط به كوكبة من الفرسان على خيول عملاقة، يمسكون في أيديهم رماح طويلة ويتمنطقون الخناجر والفرود، وخلفهم حملة رايات منوعة على بعضها آيات قرآنية، مثل "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين" من سورة الروم ألتي كان الانكشارية يدعون نزولها فيهم، قبل أن يقضي عليهم السلطان. لم يظهر الأمير فيصل بن سعود، ربما لتأخر اندمال جرحه الذي قالوا أنه طفيف، وكان في القيادة أحد إخوته الذي أرسل لهم بوجوب النزول من موقعهم المرتفع، لمساندة أعمامه وإخوته المدافعين عن الركن الشمالي الغربي للسور. اتضح أن هناك عدة حفر على شكل خط يعترض مجرى الوادي،

أعدت بشكل يوضح بجلاء أن فيها ألغام مما سُلِب من العدو، لكن عددها يتجاوز الخمسين حفرة، بينما يعلم الجد أن ما لديهم لا يتجاوز الثلاثين، لكن ذلك أخاف ضباط الترك فقرروا التوقف قبلها بمسافة كافية، ثم بداء جر المدافع ونصبها على المواقع الأمامية المستوية والتي تم تجهيزها سابقاً. وفي لحظة خاطفة باشرت أعداد كبيرة من مدافع الباشا في إطلاق حممها ولهيب نيرانها وكراتها المعدنية، نحو السور وأبراجه مما تسبب في تحطم أجزاء غير كبيرة منه، وردت مدافع آل سعود (الكبير) بقذائف مركزة على الخيالة والمشاة، لكنها قصيرة المدى ضعيفة الفاعلية قليلة العدد مشتتة التوزيع، لا يمكن جعلها نداً للمدفعية التركية. عند ذاك صدرت أوامر القيادة ببدء الرماية ضد تجمع العدو، فنزل الجد مع جمع من رفاقه نحو بطن الوادي يطلقون بنادقهم نحو جنود الباشا، ثم امتلاء المكان بالمجاهدين، الذين اندفعوا من جهة أعمام الإمام، ومن الضفة الأخرى ناحية العفيصان، كما خرجت أفواج من أهل التوحيد على الهجن المردوفة من بوابة سمحة، وانطلق الكل في حماس يريدون الوصول إلى ميمنة وميسرة البغاة، فتوقفت المدافع عن القصف حيث تداخل المحاربون من الطرفين مما يصعب معه التصويب بدقة. استمر الحال كذلك ساعتين والخيالة والهجانة والمشاة (رجلية) في اشتباك عنيف، سقط خلاله عدد كبير من الجرحى والقتلى، حتى لوحظ تراجع قلب العدو حيث الباشا للخلف، أعقب ذلك تقهقر تدريجي منضبط لبقية قواته المسلحة، وقامت فرق ابن سعود بتراجع مشابه نحو مكامنها، وخلال دقائق لم يبق في الميدان سوى عمال الغوث والإعانة، لإخلاء الجرحى وسحب جثث القتلى من الطرفين، أما المسلحون وجامعوا الأسلاب فبقوا بعيداً مؤثرين السلامة. تكررت الوقائع وفي أحد الأيام أرسل فيصل إشعار أن قوات الباشا تزمع شن هجوم كثيف مباغت على مغيصيبة، فحث تركي من يتطوع لمساندتهم للذهاب هناك في ظلمة الليل، وكان الجد علي في طليعة نحو مائتين من أهل اليمامة توجه لمساندة أهله في صد المعتدين، عند الصباح لاحظوا أن المدافع أعلى الجرف قد نصبت على أرض صلبة، وفي زوايا تسمح بالقصف العنيف نحو الأسفل، ثم انهمرت عليهم القذائف ما جعلهم يأوون للسواتر الحجرية، حيث بنادقهم لا تصل رمايتها للأعلى، لكنهم جابهوا الفرسان المتجهين من بطن الوادي نحوهم، وأحدثوا فيهم إصابات شديدة، ثم اتجهت نحوهم إبل الأعراب المنضوين تحت لواء الترك فبرزوا إليهم، وجرت ملحمة شديدة بين الطرفين، شارك فيها لاحقاً عدد كبير من مشاة الترك والمصريين واللوبيك (ليبيا) والمغاربة، وجرت مقتلة عظيمة استشهد فيها نفر غفير من أهل السنة والجماعة، كما صُرِع فيها حشد من أهل الضلال والمعتقد الفاسد، وقالوا للأمير تركي أن المنازلة انتهت "لا غالب ولا مغلوب" فتمعض. كان الجد ورفاقه أذا توجهوا من معسكرهم على التل نحو الوادي، يسلكون شعيب الحريقة لتفادي المرتفعات الوعرة، والذي يسميه البعض حُريّقة بالتصغير، وآخرون يدعونه الحُريق أو أبو حريق غيره من

ألفاظ منوعة. وهم يسيرون فيه بسهولة لاتساعه وقلة انحداره حيث يأتي من بعيد، وعندما يلتقي الشعيب مع الوادي يكون "خسيف" على ميسرتهم وهو تحت سيطرة الترك حتى التلال الغربية أعلاه، أما على ميمنتهم بعيدا فيجري شعيب "غبيراء" الذي يسميه البعض الأغبر أو غبيرة، وتحفه تلال صغيرة لكنها وعرة، ويصب في حنيفة جنوب الغياض وهو ضيق، حيث يشق أوله من تلال قريبة غرباً، ويوجد بين الشعيبين معسكرات لكتائب يقودها بعض أعمام الإمام عبدالله بن سعود وعدد من إخوته. وردت إشارة أن تعزيزات غفيرة قد وردت للباشا، وأنه يزمع القيام بهجومين قويين ومتزامنين، أحدهما على ميسرته نحو مغيصيب وآخر على ميمنته نحو غياض، لذا سارع الجماعة في تقوية المكامن والمتاريس، وبخاصة عند مصب الحريقة، كما بادروا لعمل خط دفاعي به نحو عشر صفائح متفجرة، دفنوها في وسط المدخل لصد الفوج الأول من المهاجمين. بعد منتصف الليل استيقظ الجد على حركة أحد أقاربه ينبئه بوجود أصوات وروائح، فتوجها نحو الشعيب ولم يروا أحد في العتمة الشديدة، فظنوا أن ذلك من بعض الضباع والهوام المرابطة أعلى التلال فعادوا للنوم. قبل الفجر وأثناء تسابيح السحر سمعوا أصوات خيل وبغال، أرسلوا أحدهم للتشوف فعاد بلا شيء، بعد ساعة سمعوا أصوات رماية كثيفة من ناحية الوادي، فلاحظوا وجود اشتباك عنيف أسفل الجرف، ثم أخذت المدافع أعلاه ترمي "بشرر كالقصر" كأنه جمالة حمر، وهناك كتائب من الخيالة يندفعون من العلب نحو الموقع، فأعدوا عدتهم للنزول إلى الباطن لمنع الترك في خسيف من مساندة رفاقهم في الهجوم على الفرق التابعة للعفيصان والعايذي، والتي كانت تضم حشد كبير من أهل الدلم والحوطة والأفلاج وبقية قرى اليمامة. ثم انقلب الحال فجاءة برماية من أعلى التل الذي هم فيه، وشعر الجد بقلق شديد فهناك معسكر الأمير تركي وصحبه، لذا توجه مع كوكبة من الفرسان نحوهم في تسلق أرض وعرة، وما لبثوا أن وفدت نحوهم جموع منحدرة هاربة، كان البعض مجروح وآخرون يرتعدون من هول ما جرى لهم، لكن الجد لم يكترث لهم وتبع رفاقه في الصعود، وحينما ورد قرب المخيم راعه منظر المئات من عساكر الترك يصوبون بنادقهم نحو المجاهدين، وهي ذات زناد سريعة الإطلاق (بلا فتيل) بعيدة المدى حامية المقذوف، وكانت المعضلة أن المكامن قد بنيت لتكون واجهتها نحو الوادي وظهرها صوب التل، لكن الله ألهم الرفاق أن يستديروا ويحصنوا أنفسهم على الجانب المحدب، وأوقعوا بالروم إصابات عديدة لكنهم ابتعدوا عن عتادهم وعدتهم. تمترس الجد معهم وأخذ يرمي البغاة الذين يحاولون الاقتراب منهم، بعد ذلك هالهم أمر آخر فقد سمعوا رمايات قوية أسفل منهم، بدا أنها من حول ملتقى أبو حريق مع حنيفة، حيث يكمن عدد من إخوة الإمام ومعهم فوج من أهل المحمل والقصيم، وعلموا من شدة الأزيز أن الالتحام كثيف، لكنهم استمروا في مواقعهم لمنع المهاجمين عن النزول نحو رفاقهم القادمين من العلب. لاحظ الجد فرقعة غير عالية لا تشبه رمي

المدافع، وخمن أن الرفاق المدافعين عن فم الشعيب قد لغموا المكان ببعض الصفائح، التي يبدو أن بعضها به عوار، أو أنهم لم يحسنوا تشريكها، وهو أن يقوموا بعمل اشتراك لعدة فتائل ثم تربط في فتيل واحد طويل، يتيح للمشعل الابتعاد مسافة كافية، ثم تنفجر العبوات أما في وقت واحد أو في أزمنة متسلسلة، لكن ذلك العمل يحتاج مهارة ودراية عميقة، لم تتوفر بعد لأهل الدرعية الذين لم يعرفوا الألغام إلا قبل أيام. استمر المجاهدون في صد البغاة عن تقريب مدافعهم نحو السفح، حتى لا يتمكنوا من رماية السور من جهته الضعيفة (الغربية) وذلك رغم ما هم فيه من جوع وظماء، وحينما أحضر له الخادم قليل من ماء وتمر جاف تخاطفها المقاتلون، ظناً أنها من تموين القيادة. بعد الزوال أخذ العدو يغير من بعض مواقع عساكره، فهداء الرمي قليلا ثم شاهدوا أحد إخوة الإمام يتجه نحوهم، يرافقه مجموعة من حرسه وعشرة جمال تحمل سلاح وذخيرة وزاد، ثم انفرد الأمراء في حديث مختصر.

قيل لهم أنه عند العصر سيصلهم مائة وخمسون مقاتل، يرأسهم أحد رجال الحوطة الأشداء، سيبقى بعضهم على الميسرة مع أحد أبناء الأمير تركي بن عبدالله، ويتجه البقية مع مائتين منهم نحو أسفل الوادي، لصد الهجوم الشديد على ركن السور (شمال غربي) وطمأنوهم أن خيالة الترك تجابه صعوبة جمة في النزول من التلال الوعرة غرباً، ويمكن قنصهم عند ذاك. وجدوا عند السور اثنان من إخوة الإمام (مشاري وسعد) أبناء أبو شوارب، في حراسة كثيفة وعليهم قمصان مدرعة بالجلد، كان أحدهما جاد الملامح قليل الحركة، أما الآخر صغير السن مرتبك الحركة والكلام. هال الجد مشاهدة أمرين أولهما ستة مدافع مرتكزة أعلى الضفة المقابلة من أبو حريقة، وثانيهما كثرة جثث العساكر الملقية عند مصب الشعيب، وبجوارها حفر الألغام التي لم ينفجر بعضها، لكن يبدو أن فرقعتها قد أفزعت فرسان الروم، فكبت الخيل مما جعلهم هدف سهل للمجاهدين. اشتكى أحد الأمراء لانعدام وجود عبوات الألغام، والتي يمكنها عرقلة أي هجوم آخر، ولكن شيخ من بني تميم قال "إياه نعبد وإياه نستعين" والنصر من عند الله، فبدا عليهما الامتعاض والتذمر، فصدر أمر جاف على أهل الحوطة للنزول نحو بطن الوادي المكشوف والمتهدمة معظم سواتره، ثم جرى حديث لم يعلم الجد كنهه، لكن الجماعة لم يبدو أنهم مرتاحين للتوجيه، لذا أمروا أحد كبارهم بالتوجه للطريف لإحضار مزيد من العدة. توجهت كتيبة الجد نحو متراس على ميمنة ملتقى الحريقة مع حنيفة، وهناك كمنوا حتى اقترب الغسق فلا حظوا حركة عند المدافع المواجهة لبوابة سمحة، أربعة منها مضادة للأفراد والبقية بجوارها كمية وافرة من المكورات المعدنية. يعلم بعض الأحبة أن المدافع القصيرة (3 أذرع) تحشى بلفافات من الجوت (خيش) مليئة بملح البارود، مع قطع معدنية من الرصاص والحديد، يخلط معها الأشرار شظايا نحاسية صغيرة، تسبب تسمم الدم وتكون الصديد في الجروح،

لذا يتحاشاها المشاة والفرسان لأن الإصابة بها تؤدي إلى عواقب وخيمة. لاحظ الجد طُرق إعداد قطع الرصاص التي يتقنها أرمن وأرناءوط من عسكر الباشا، حيث يجلبون سبائك المعدن سهل الذوبان، بوزن خمس أقات (+ 7 كجم) حجمها نحو كف الرجل، ولا يصعب شحنها من مصر، ثم توقد نار حامية عليها قدر ضخم من الصلب الثقيل، توضع بداخله نحو ثلاثين سبيكة من الرصاص الخام، لا تستغرق وقت طويل حتى تذوب، وحول ذلك ستة قدور متوسطة السعة في كل منها ماء يغلي، مخلوط معه ملح الطعام ومساحيق أخرى لا يدري ما كنهها، ويتقدم العارفون وفي يد كل منهم مغرفة من الصلب، وغربال حديدي ثم يأخذ مقدار من قدر الإذابة، ويضعه داخل الغربال المنصوب على قدر الماء، ثم يسكب ذالك داخله فيبداء في التصلب تدريجياً حتى لا يتلف، مع استمراره في التحريك بالمغرفة، بعدها يحضر المشخلة ذات الفتحات المتوسطة، ويعيد القطع الكبيرة والصغيرة لوعاء الإذابة، ويناول المعاونين القطع ذات الحجم المقرر، لكي تدخل مع خلطة المدفعية، أما الحديد والنحاس فيصعب صهرها فتأتي من مصر مفتتة، جاهزة للخلط مع الرصاص والحصى والبارود. ومدافع الدك طويلة (نحو قامة) وتلقم بكرة واحدة من سبيكة المعادن الثقيلة، يبلغ وزنها بين40و50 أقة ومحيطها شبرين، بينما تعبأ الأنبوبة بكمية مقننة من ملح البارود العالي الاشتعال، ويوقد الفتيل في المؤخرة لتندفع القنبلة بسرعة عالية لتهدم المبنى الذي تصوب نحوه. خرج عدد من رجال الإمام على الإبل لمهاجمة مشغلي المدافع، لكن جنود الباشا خلف السواتر القريبة أطلقوا عليهم نيران بنادقهم، ثم وجهوا اثنان من المدافع الصغيرة فرجمتهم بقذائف حامية، مما أجبرهم على التقهقر نحو داخل الحائط، فخلى بطن الوادي للعسكر يرتبون فيه أحوال قررتها لهم قيادتهم.

في الهزيع الأخير من الليل سمعوا لغط وجلبة من الناحية الشمالية للسور، وكان القمر قريب من المحاق والظلام دامس، ولم يجروء أحد على النزول نحو الوادي لاستطلاع الأمر، وبقي الجد وجماعته في تحفز وقلق لما قد يستجد. مع أول خيوط النهار ارتفعت أصوات رماية كثيرة، جاءت من أعلى التل الغربي أعقبها ضجيج وعويل، ثم شاهدوا عدد كبير من الرفاق يهرولون نحوهم، ثم لاحظوا جمال مردوفة يقود كل منها أعرابي في يده رمح طويل يطعن به المشاة أمامه، وخلفه عثماني يطلق النار على الفارين بعيداً. جاهدوا لمقاومة أولئك البغاة لكن عددهم بالمئات، ولم يدركوا من أين وكيف جاءوا؟ فكمنوا خلف المتاريس الحجرية يقنصون المهاجمين على قدر المستطاع، الذين سقط عدد منهم بين قتيل وجريح، لكن جلهم استمروا منحدرين نحو جب الغياض وعبر شعيب غبيراء، وبعد لحظات دوت طلقات مدفعية الترك جهة المرتفع، فدخل الرعب قلوب الجميع، وأدركوا أن بعض المتعاونين مع الباشا يساعدون ضباطه في القيام بحركة التفافية حول سور الدرعية من الغرب. لم يدرك

الجد علي فداحة الخطب، إلا حينما رأى نحو ألف من هجانة العرب يهرولون نحو الحائط يقتلون من يقف في طريقهم، علم أن الترك غير متمرسين في ركوب الإبل، وأن أولئك هم من عتيبة ومطير وحرب وتميم وقحطان كما بدا من لباسهم، وكي لا يظلم نفسه فإن أبي حدث مجالسيه أن من بين المهاجمين بعض من قبيلة سبيع، بل ربما كان معهم اثنان من آل خثلان، حيث أصاب القوم أذى كبير من أبو شوارب، في كرامتهم ومالهم ودمائهم خلال العشرين سنة الماضية، ثم زادهم بعض أبنائه عِلة على وجع. كان مع الغزاة نفر من الجمالة ليسوا من جزيرة العرب، سواء من مصر أو النوبة أو لوبيا ومراكش، لم يعرفوا شيء عن الإمام سعود الكبير وأولاده، بل ضللوهم بفرية الوهابية، وأكثرهم جاءوا أما كخدم مستأجرين أو سخرة بمسمى "الجهادية" المحرف. عند الضحى تيقن الجد من هول المصيبة، حينما جاء أحد الرفاق يدعوهم للانسحاب شرقاً نحو ملقى الشِعب مع الوادي، حيث هبط الأمير تركي من مخيمه في الأعلى، وثيابه ملطخة بالدماء من جراحه بعد استشهاد أكبر أبنائه، وأنه يوجد الآن في معسكر حفدة عمه. سارع الجد مع العمال في فك المخيم وحمل ما خف ولزم، حيث إن المكان قد يكون في قبضة العدو خلال ساعات، ثم سارعوا للنزول نحو مخيم الأمراء، هناك وجدوا الأمير تركي بصحة جيدة، لم يصب سوى بجراح طفيفة عندما كبا جواده، لكنه لم يتعرض لطلق ناري من بندقية أو مدفع، قدموا المواساة له في استشهاد أكبر أبنائه، الفارس الهمام ذو الخلق الطيب والرزانة. لاحظوا شدة هجوم الترك على رفاقهم على الضفة المقابلة من الوادي، ثم خرج جمع من جهة سمحة واتجهوا يميناً لمساندة رجال العفيصان، لكن قيادة العثمانيين الميدانية والمشكلة من ضباط فرنسيين وايطاليين خبراء، كانت بالمرصاد لأي محاولة للالتفاف على ميسرتهم، لذا باشروا في إطلاق المدافع المضادة للأفراد باتجاه المهاجمين مما ألزمهم بالعودة داخل السور، كما بدا واضحاً أن الإمدادات الواردة مؤخراً للباشا، قد زادت قدرتهم القتالية وبدرجة فعالة. حاول بعض خيالة الباشا، يعاونهم جمالة الأعراب دخول أبوحريق من الباطن، لكن أهل السنة والتوحيد انبروا لصدهم، فكمنوا لهم خلف السواتر الحجرية برماية مكثفة، وعندما شعر الغزاة بتأخر المدد انبرى بعض ضباطهم الشجعان للنزول، والمحاربة مشاة فخرج لهم الجد مع الرفاق واحتدم الصراع بالسيوف والخناجر، وهنا أظهر الله تأييده للذين هم على صلاتهم يحافظون، وجرى اشتباك بالأيدي مع نفر من البغاة طوال الأجسام ضعيفوا اليقين، بينما استمر البعض في إطلاق نيران بنادقهم، حتى قضى سبحانه أمره وانهزم العدو فارين نحو العلب.

قبل العصر أشار أحد العمال نحو البرج القريب من الركن الشمال الشرقي للحائط، حيث صدر ضوء خاطف أزرق أعقبه دوي هائل ارتجت منه كل الدرعية، مع تخلخل الهواء حتى تهاوت بعض النخلات القريبة منه، وتحطم عسيب بعضها الآخر، ثم

اندهش الجميع وهم يرون عمود يعقب الدخان، يتكون من غبار هائل يشق عنان السماء، وبعد لحظات كان المشهد المرعب لجزء من البرج يتهاوى ببطء نحو الأرض، تتبعه أجزاء من السور الشمالي للعاصمة وقد تساوت مع مجرى بطن الوادي. تبين للجد أن العدو قد تمكن من وضع عدد كبير من عبوات البارود أسفل جزء من الجدار والبرج، وبشكل منظم حتى تنفجر كلها في وقت واحد، وقد نجح بذلك في إحداث ثغرة كبيرة يمكن النفاذ منها، وهو ما فشلت فيه المحاولات السابقة بالقصف المدفعي، حيث ثبتت قدرة الألغام الفتاكة لتحطيم المباني الحجرية. تحمس البعض للتوجه نحو الشرق لصد الغزاة عن الولوج داخل العاصمة، بعد أن حدث ذلك الشرخ العميق في التحصينات، لكن الأمراء أوصوا بالتريث حتى ترد إليهم أوامر القيادة من سمحة أو الطريف. استأذن بعض العمال للتوجه نحو موقع مخيمهم أعلى التل، والذي غادروه على عجل وتركوا بعض المتاع، قال الجد إن المنطقة غدت في قبضة العدو، ويخشى على سلامتهم مقابل بعض أدوات الطبخ والنظافة، لكنهم ألحوا بحاجتهم لتلك الأدوات كما استرقوا النظر على بعد، ولم يروا أحد قرب موقعهم السابق، بل الجميع يمرون جواره سريعاً نحو الغياض، غير آبهين بالمتروكات فيه، ثم قال رجل إن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة توجد داخل السور، ولا يوجد خارجه إلا الفتات والمهملات. عادوا معهم كافة مستلزماتهم مشيرين إلى تحول الهجوم إلى شعيب غبيراء، وأن رجال العدو يسحبون أربعة مدافع نحو الجب، كما أن عدد كبير من البعارين تحمل الصفائح المعدنية متجهة نحوه أيضاً. كعادة الهواء في العارض أثناء برج الحمل، مرت عاصفة متوسطة تحمل الكثير من الأتربة والغبار، مما جعل حنيفة يبدو كئيباً معتماً، لذا دعا الصالحون ربهم أن يجعلها رياحاً فيها خير لهم، ولا يجعلها ريح صرصر عاتية وأن ينزل شرها على عدوهم الآثم. قبيل المغرب ظن الترك أن الفرصة مواتية لهم لمعاودة الغارة على الحريقة، لكن الرجال جابهوهم بمقاومة أعنف، حيث تلثم العرب بأرديتهم وعمائمهم، لكن الغرباء عن الأرض ملأت عيونهم وأنوفهم الرمال، لذا مكنهم الله من دحرهم نحو معسكرهم. لاحظ الجد بمنظاره وجود عدد غفير من المسلحين وعمال الأمير فيصل، يصعدون أعلى ركام السور ويحاولون إصلاح ما يمكن لتعزيز مناعة المقاومة، وصد جنود وعمال العدو الذين يحاولون في الأسفل شق طريق للفرسان للصعود ثم دخول الدرعية، وباءت محاولتهم بالفشل حيث سارع العفيصان بإرسال كثير من رجاله لضرب البغاة، كما استبسل الرماة في البرج الغربي (ميمنة الوادي) لضرب المتسللين، وفي نفس الوقت استدارت مدافع أبناء الإمام سعود شرقاً، وأخذت تدك عساكر الباشا بقذائفها الضعيفة الفعالية، لكنها ترعب المرتزقة الجبناء فولوا هاربين. وفي اليوم التالي استأنفت المنازلة التي أودت بحياة عدد غفير من جنود العدو، كما استشهد وأصيب فيها حشد جم من المدافعين عن العقيدة والديار، مع محاولات كثيرة من ضباط الفرنجة للدوران حولهم

وتدبير سبل الدخول للدرعية لكنهم فشلوا في ذلك، واستمرت المجالدة المحمومة بين الرجال من الطرفين. توقف القتال والرمي عصراً بعد هطول مطر قليل سكنت بعده العجة، لكن باحة العلب أمست رطبة تنزلق فيها الدواب والراجلة. بعد ثلث الليل كان الجد يتهجد في مصلاه، وكان بعد المغرب يشاهد سحب كثيفة جهة القبلة، فيها برق ورعد بلا مطر، والبعض يسمونها السرايا لأنها تمضي ليلا متجهة شرقاً، وفي بعض الأزمنة تنهمر منها أمطار غزيرة، تفيض منها الشعاب وتسيل الأودية بكثافة، محدثة أضرار للمباني والمزروعات، وكان يتخيل وادي حنيفة فيما لو حدث ذلك، وكيف أن السيول قد تجرف كثير من التحصينات والجدران التي أقامها المتحاربون في المكان. وبينما هو في ذكر وتأمل وتفكر إذ ومض في السماء ضوء أزرق ساطع، ليس مثل البرق بل أشد قوة وهولاً، وبعد لحظة واحدة دوى انفجار هائل ارتجت له تلال الدرعية وبروجها المشيدة، وأخذ صداه يتردد في المكان يرعب القلوب ويصم الآذان، ولم يكد يسترجع ويسأل الله السلامة إلا وهرول نحوه أحد العمال، قائلا أن الانفجار يظهر أنه من خلفهم (شرقاً بجنوب) وعندها شم الجد رائحة البارود واحتراق الطين المبتل من المطر، ثم جاء أحد الرفاق قائلا أنه قد سمع صوت انهيار البناء على ميسرته، وطلب من البعض مرافقته لاستطلاع الأمر، فذهبوا مسرعين لاستكشاف ما حدث، أما الجد فعلى عادته لا يغادر إلا بأمر من القيادة أو ضرورة قصوى.

قبل طلوع الشمس وجه الأمير تركي أحد مماليك آل سعود، الذين برزت خبرتهم القتالية في الفترة الماضية، أن يقود كتيبة من المقاتلين باتجاه غبيره، ليقوم بعملين أولهما استطلاع الوضع وإخباره عن تفاصيل الحال أسفل الشعيب، والآخر هو عرقلة أي تقدم للعدو. ساور الجد قلق حينما اقتربوا من سور الدرعية، ثم اكفهرت مشاعر الجميع لما عاينوا حشود كثيفة من قوات وعمال الباشا، كان عددهم يناهز الألفين مسلحين بالبنادق والفرود، يتجمهرون حول شق كبير في الحائط أحدثته أعداد كبيرة من الألغام، تبعد أكثر من مائة خطوة جنوب البرج الرئيسي هناك، الذي تصدعت بعض أجزائه لكنه لم ينهار، أمر القائد بالتقهقر والعودة للأمير حيث عددهم لا يتجاوز المائة والخمسين، ولا قبل لهم بالمصادمة مع عدو يزيد عدده عن عشرة أضعافهم، وأثناء التسلل في هدوء عاين الجد العمال يزيلون بعض الركام، ويمهدون درب يتسع لدخول الفرسان والهجانة، عند المغادرة التفت الجد ورائه فشعر بغصة ومرارة، حينما رأى أربعة من خيالة الروم يلجون داخل السور. عند وصولهم للقيادة توجه رئيس الكتيبة للأمراء ليبين لهم الأمر، وجاء أحد أقارب الجد وهمس له بأنه شاهد جنود العدو يدخلون الدرعية، فرد عليه أنه لم يقدر على شرب الماء من حين رأى ذلك أيضا، وأوصاه بعدم إخبار أحد حتى لا يدخل الوهن قلوب البسطاء، لكن الرجل رفض ذلك وأوصى بأداء الشهادة، فوافق الجد أن يذهبوا للأمير ويخبروه وهو ينظر فيه بما

يرى. وجدوه مختصراً مع بعض رجاجيل آل مقرن ذوي الشجاعة والفطنة، وبعد أن أذن لهم لقوا عنده قائد كتيبتهم فحادثوه بالأمر، وأجابهم أن الخبر قد ورده وأرسل فوراً بذلك للأمير فيصل، الذي ولاه الإمام قيادة الجبهة. ثم سمعوا صوت رماية متقطعة من جهة الجب (جنوباً) لكنها أقل بكثير من الرماية المستعرة الواقعة عنهم شرقاً، ورغم التحفز لمجابهة الغزاة في جهتي الشمال والغرب من السور، إلا أن الأوامر ببقائهم في ركن الحائط كانت قاطعة، لذا بقوا يومين يرون حشود العدو تدخل العاصمة، ويسمعون أصوات رماية من المدافع والبنادق، غير عارفين بكنه الأحداث ولا مشاركين في مجابهة العدو، كانوا يمضون وقتهم في إصلاح العطب في سلاحهم، وترتيب بعض أحوالهم الشخصية، والبعض يتناقلون الروايات عن أحداث العرب في ذاك الزمن العصيب، ومما قاله أحدهم أن أهل عسير لما بلغهم دخول الباشا نجد قبل شهور، تطوع منهم عدة آلاف مجهزين بالعتاد والمئونة، لكن الترك كانوا قد قضوا على كافة كبار زعماء عسير والمع كما سبق ذكره، ولم يبقى سوى أفراد متناحرون على السلطة، لذا توجهوا لأمير المخلاف السليماني، الذي سنذكر وقائعه في سرد القرن التالي، حيث كان صاحب هذه السيرة مندوباً للملك عبدالعزيز هناك. وقد كان أمير المخلاف الشريف حمود أبو مسمار محباً لدعوة الإصلاح، وموثوقاً لدى الإمام سعود، لذا كتب للإمام عبدالله يستأذنه القدوم للدرعية مع جيشه، لكن أخو الإمام فيصل رفض ذلك بشدة، متذرعاً بأن حمود من سلالة أبانمي جد أشراف مكة المعادين لسعود، كما ذكرهم أن أهل المخلاف غدروا بطامي المتحمي بطل المقاومة في عسير، وسلموه للمصريين ليقتلوه وذلك قبل ثلاث سنوات، لذا فهو لا يأمن الشريف أبو مسمار أن يدخل الدرعية. لذا قرر الإمام أن يرسل لحمود شكر واعتذار، مع حثه على فتح جبهة ضد العثمانيين في الحجاز، ومهاجمة خطوط امدادهم من ينبع وجدة حتى القصيم، وقد قام بذلك فعلا لكنه مات عندما كان الباشا في القصيم قبل الدرعية. كان والدي يسرد تلك الوقائع لمجالسيه في خمسينات القرن العشرين، ويقاطعه البعض باستفسار أو تعليق، أحدها كان يتعلق بالمسميات حيث تساءل شخص عن لقب أبو مسمار، وما إذا كان يمثل إساءة للمرء تجعلهم يستهجنوه، فقيل له أن بعض الكنى المحتقرة ينبذها الجميع، ولا تقال إلا سراً وبعيدا عن سمع المقصود، وهناك كنى اشتهرت ويسهل تمييز الفرد بها لأن اسمه شائع ويدخل الالتباس، حيث يوجد كثير ممن يحملون اسم الشريف حمود، أما أبو مسمار فكنية مميزة لا يشارك فيها أحد. كما أشير أن الإمام سعود الكبير لم يكن يتأفف من لقب "أبو شوارب" مع خواصه، بل مدحه شاعر بأن له شاربين يقف عليهما صقرين فمنحه جائزة، أما العامة فلا ينادونه إلا "يا طويل العمر" واثنان من أولاده هم من ذوي الشوارب الكثيفة المفتولة، التي لا يرونها مخالفة للسنة! بل يفتخرون باللقب رغم أن الشارب مفرد لكنهم يجعلونه جمع إمعاناً في الكِبر. بادر أحد الجالسين بالقول أن ذرية الأمير جلوي بن تركي آل سعود يفاخرون ويعتزون

بلقب جدهم (عم والد الملك عبدالعزيز) رغم أن الجلوي تعني الهارب أو المطرود، لكنهم يسمون أولادهم به رغم أن جدهم اسمه محمد، لكن الكنية شاعت ولم يرغبوا في مصادمة العامة، حيث كنية شائعة خير من أسماء ضائعة، وقد تحفظ والدي على تلك المقالة. قال آخر أن موت أبو مسمار لم يكن في بداية عام 33 بل في نصفه الثاني، وأنه اطلع على مخطوطة نجدية في لندن توثق ذلك، رد عليه أحد الحضور بأن أبو خالد أرسل مندوباً للملك في المخلاف قبل أكثر من ثلاثين سنة، وهو يعرف المنطقة وتاريخها ورجالها بالتفصيل قال آخر إن بعض المخطوطات مليئة بالأخطاء، بل إنها قد تحوى تدليس متعمد مثل تفخيم أناس، وتعلية قدرهم بما يتجاوز إمكانياتهم الضئيلة، المعروف عند الجميع أنها لا تليق بقرى صغيرة سكانها قليلون، ومواردها محدودة مقارنة مع مدن أكبر، أهملت الكتابات ذكرهم أو قللت من شأنهم، ويرجع ذلك لمحاباة أهل المناطق لبعضهم، أو يكون لوجود ضغائن تلوث أمانة السرد، وفي حالات يرجع الأمر للدراهم والولائم. وذكر مثال على ذلك من ينقل حرفياً عن مصادر لا يشير إليها بوضوح، أو أن يذكر في مخطوطة انتقاص لقوم ثم في نسخة أخرى ينفي ذلك ويرفع قدرهم، وأشار أنه رأى في أوراق قديمة ذكر رجل مات، وعند سرد حوادث سنوات لاحقة ادعى أن الميت حضر معركة قتل فيها أعدائه، فكيف يستقيم خبره وهل يمكن الركون إليه؟ قال أبي إن الخلل في المصادر القديمة أو الحديثة وارد، بسبب السهو أو متعمد لغرض شخصي بحت، ويمكن عرض المخطوطات على بعضها، وما انفرد به أحدهم يجري تمحيصه قبل الاستناد عليه واعتماد صحته، ثم أشار لهم أن بعض أعداد الجريدة الرسمية في البلاد(أم القرى) يوجد بها أخطاء حتى في تاريخ طباعتها، ناهيك بما يرد في بعض الأخبار السابقة.